
حارة اليهود
محمد جبريل

حارة اليهود

محمد جبريل

تصدير

الحارة اليهودية وقاهرة المعز

الروائي القصاص الناقد "محمد جبريل" مبدع سكندري، لا يتأتى ذلك من كونه ولد وعاش ردحًا من الزمان بمدينته البحر متوسطية ، وإنما تتجلى سكندريته من كونه عاشقًا متبتلا بالثغر الساحلي ، وغارقًا لأذنيه في أساطيره وعوالمه السحرية ، يسير على شاطئ الأنفوشي فلا يعثر إلا بمخلوق غامض لا هوية له ، يظهر للناس حين يريد أن يظهر ، ويختفي حين ينسى الناس وجوده بالتعود ، ويدلف إلى شارع (السبع بنات) فيصطدم بوجود بشري متحرك في صمت ، لا تسقط من شفتيه سوى كلمة "النصر"، تقفز فرحة في زمن الطفول ، وتتكسر على الأرصفة في أزمنة الهجرة بعيدًا عن الوطن ، تدخل إلى "حارة اليهود" المتقوقعة بقاهرة المعز المتسلحة بوعي تاريخي يؤكد على أن الدودة أصل الشجرة ، وأن فعل الغد المرتقب لن يحدث إلا بدراسة عجز الأمس القريب عن القيام بمثله .

مجموعة متميزة مختارة من قصص سريع الإيقاع ، مؤسس ببنية متماسكة ، واضحة المعالم ، عميقــة الدلالــة ، تعيش زمناً ساحليًّا مفتوحًا ، لترتد للحظــات إلــى حــارات العاصمة المغلقة ، وسرعان ما تعود فرحة إلى ثغرها المنفتح على العالم ، لا تصد نفسها عــن أحــداث تيــارات القــص العالمية، لكنها أبدًا لا تقع في منزلق الغموض والمعاظلة .

إنها قصص فاتحة الصدر على العالم وله ، تتفــاعل دون تسطيح لوقائع الحياة ، وتمتلك رؤيتهــا علــى تغييــر معطيات الواقع لصالح الإنسان ، لذا يظل الإنســان غايتهــا ونبراسها وبطلها الأول .

د. حسن عطية

حدث استثنائي في أيام الأنفوشي

بعد أن استقرت السمانة فوق الصـــاري المرتفـــع ، الخالي من العلم ، في الجانب الأيمن من سراي رأس التـــين .. ألقت نظرة متأملة على مبـــاني الســـراي مـــن حولهـــا ، والحديقة الواسعة يحيط بها سور مرتفع كحـــدوة حصـــان ، والمباني المقابلة للشاطئ ، تآكلت واجهتها بملـــح البحـــر ، والقوارب الصغيرة تناثرت فـــوق الرمـــال ، والشـــاطئ ــ وطريق الكورنيش ــ في تلك الأيام الخريفية التي تخلو مـــن الحركة ...

تقافزت السمانة فوق الصاري ، وتهيأت لمواصـــلة الرحلة . لكنها ــ في قرار مفـــاجئ ــ غيـــرت طريقهـــا ، وعادت إلى شواطئ أوروبا ..

***

في اليوم التالي قدمت ــ في الطريق نفسه ــ ملايين الأسراب من السمان ، غطت الشاطئ والشـــوارع والأزقـــة وأسطح البيوت ، تهادت ــ من الأبواب والنوافذ ــ إلى داخل الشقق والدكاكين . حتى الكبائن القليلة المغلقة ، في امتـــداد الشاطئ استطاعت ــ بوسيلة ما ــ أن تنفذ بداخلها ..

بدا للناس ــ من كثافة الأسراب ، ودقة تنظيمهــا ، وانتشارها في كل الأمكنة ــ عجزهم عن المقاومة . مالوا ــ مؤقتًا ــ إلى التريث ، فرحلة السمان لا تعرف التوقف.

* * *

هل يعد السمان نفسه لإقامة طويلة ؟. لم يحاول أن يضايق الناس ، ولا أن يسطو على ما يمتلكون ، أو يدس منقاره في شئونهم الشخصية ، أهمل حياتهم ، فهم يحيونها بمثل ما اعتادوا: النوم والصحو والعمل والنقاش والفصال والأخذ والرد واجترار الذكريات . أحسنت مجموعاته الانتشار ، فهيأت لنفسها الرزق . اكتفت بحجرة في نقطة الأنفوشي ، تدير منها أحوالها ، أفرزت ــ من بين أسرابهاــ كل ما تحتاجه من جنود وعلماء وحرفيين وموظفين ، حتى الصغار ، أقامت لهم مدارس ودور حضانة في حنيات السلالم والأدوار الأرضية ، أغنت الناس عما ألفوه ــ في الزمن الخالي ــ من الجري وراء أسراب السمان ، حتى يهوى مجهدًا في أيديهم ، فتنازلت ــ بطيب خاطر ــ لموائد الطعام ، عن مرضها والمصابين في حوادث .

* * *

لم يعد في الأمر ما يريب ، استفاد الناس من حياة السمان بصورة مؤكدة: النظام والهدوء وحب العمل ــ والكسب ــ والميل إلى عدم السهر . لكن شيئًا ما مقلقًا ، تحرك في النفوس ، وتصاعد بالهمس ، أثاره الملل والمخاوف والأسئلة . لاحظ الناس أنهم لم يعودوا يتصرفون بمثل ما اعتادوا ، وتنبهوا ــ وإن كان متأخرا ــ إلى ملايين الأعين والأنفاس القريبة ، والمقاسمة في المكان مهما كان شخصيًّا ، خلت التصرفات من العفوية التي كانت سمة أيامهم السابقة . بدا لهم استمرار الوضع ــ بصورته الحالية ــ غاية في الصعوبة . تهامسوا ، وعقدوا الجلسات السرية ، وتبين لهم ــ بعد نقاش طويل ــ أن السكوت عن المقاومة ــ رغم كل شيء ــ طريق إلى الجنون .

"إبداع ــ فبراير ١٩٨٦"

الطوفان

في مواجهة شاطئ الأنفوشي . في الساحة الترابية الواسعة بين شارعي خير الله بك والبوريني ، ظهر المخلوق الغريب فجأة ، جثة هائلة ، غامضة الملامح والتفاصيل ، أضخم مما اعتادت الأعين أن تراه ، وأضخم مما رواه الجد السخاوي في حكاياته المثيرة عن أعاجيب الكائنات . مد الساقين في استرخاء . وأسند الرأس إلى ما بين الساقين ، وتطلع ـــ بنظرة ساهمة ـــ إلى اللاشيء أمامه ..

قالت رواية: إنه اختار تلك اللحظات التي تعقب صلاة الفجر ، يعمق سواد الليل بصورة قاطعة ، قبل أن يتسلل ـــ في داخله ـــ نور الصباح ، لحظات يعمق فيها كل شيء حتى الحاجة إلى النوم . سعى من مكانه في أعماق البحر ، إلى هذه الساحة المقابلة لورش المراكب ، فأخذ مكانه ، يخلو من أثر الحياة ، لولا عينيه اللتين تتحركان تحت أهداب مسترخية ، أميل إلى التهيؤ للنعاس ..

صحا الناس في الأنفوشي على المخلوق الغريب ، يطالع أنظارهم ودهشتهم ـــ وخوفهم أيضًا ـــ من كل الأمكنة، حتى أول صاعدة إلى سطح بيتها في مساكن خفر السواحل ، أطلقت صرختها الداهشة ، فهرع الجميع لمعرفة

ما حدث ، واختفت هياكل السفن وراء المئات الذين احتشدوا على الرصيف ، وفوق سور الكورنيش ، يتطلعون ويسألون ويناقشون ويحاولون التخمين ..

***

أفسح العساكر ــ بصعوبة ــ طريقًا لعالم الأحياء المائية ، الذي رضخ ــ لخطورة الحدث وضيق الوقت ــ فركب سيارة البوكس ..

هدأت خطواته حين انتهت به لمة الأجساد المتلاصقة إلى فراغ يتوسط معظمه المخلوق الغريب . دس في جيب معطفه الأبيض معدات ــ من الواضح أنه كان ينوي استخدامها ــ وعدل نظارته الطبية فوق أنفه ، وتطلع إلى المخلوق في اهتمام واضح .. همس الضابط المرافق في أذنه مشجعًا:

ــ اقترب يا سعادة البك !..

اضطرب لصوت الضابط ، وليس للملاحظة . كان قد استغرق تمامًا في المشهد المثير أمامه . هذا المخلوق الغريب الذي يصعب تبين إن كان ينتمي إلى البحر أو إلى

الأرض ، أو إنه طائر من تلك التي أشار إليها الجد السخاوي في حكاياته ..

تساءل الضابط:

ــ هل هو حوت ؟..

أجاب العالم في حسم:

ــ لا .. هاتان العينان لكائن بشري !..

ــ الجثة نفسها ليست لمخلوق مما نعرفه .. ليست حوتًا أو فيلاً أو طائرًا كبير الحجم .. ولعلها شيء يجمع بين ذلك كله !..

مال العالم إلى الخلف في قرار مفاجئ:

ــ إني أعرف في الأحياء المائية وحدها !..

* * *

تزايد الناس ، وإن لم يقتربوا ، فبلغوا عشرات الألوف .. سدت منافذ الشوارع والأزقة ، من سراي رأس التين إلى انحناءة الترام في طريق الكورنيش . تساندت عشرات السفن الصغيرة ، والكبيرة ، وقف فوقها ، وتسلق

أشرعتها وصواريها ، مئات الأعين المتطلعة إلى الجسد الذي بدا ــ في همودهـ ــ أنه لا يعنيه ما حوله ..

محروس الصغير ــ ابن المعلم متولي العباسي ــ وحده تشجع ، فقذف المخلوق بقطعة حجر ، ارتدت إلى الأرض أمامه ، ولم يبد أنه قد أحس بها ..

قال طبيب استدعته الشرطة:

ــ لماذا لا نعطيه مخدرًا يساوي حجمه ، ثم نعيده إلى موضعه في البحر ؟!..

رافق رأيه بخطوات مهرولة إلى دكان عم محمد حلاق الصحة القريب . أفسح له الطريق عشرات من الذين وجدوا في الفكرة ما يستحق التنفيذ ..

حمل كل ما في الدكان من حقن مخدرة ، وبسمل وحوقل وتشهد ، واقترب ــ محاذرًا ــ من الجسد ، شجعته الاستكانة التي تلقى بها المخلوق غرس الحقنة الأولى ، إلى إتبعاها بحقن مخدرة أخرى ، تالية ..

***

طال الانتظار ، فلم يبد أن المخلوق تأثر بالحقن المخدرة . ظل في جلسته الهادئة يعلن عن صحوه ــ وحياته ــ بعينين ساجيتين ، تنظران إلى أمام في سكون هادئ ..

فلما توالت الأعوام ، دون أن يبارح المخلوق مكانه ، قرر المحافظ الجديد للمدينة ــ حرصًا على مكانتها السياحية ــ أن يستعين بالقوات المسلحة ، فتقضي عليه تمامًا ..

ارتدت ــ بين دهشة الناس وفزعهم ــ عشرات القذائف الصاروخية ، دون أن تحدث في جسده أثرًا حقيقيًّا ، وإن أكد كثيرون ــ من الذين أتيح لهم المتابعة عن بعد ــ أنه بدأ يتململ في جلسته ..

***

أعلنت القوات المسلحة عجز وسائلها عن القضاء على المخلوق الغريب ، أو حتى محاولة إعادته إلى البحر الذي لابد أنه أتى منه .. ولبث المخلوق في موضعه ، هادئًا، ساجي العينين ، وتشجع الناس ، فاقتربوا منه . وتحول ــ بمضي الأعوام ــ إلى مظلة يحتمون بها ، وعقدوا الصفقات،

وقضوا الأمسيات ، وبالوا ، وغاطوا ، وتمخطوا ، ومارسوا الحب ..

وفي تلك الأيام التي بدا فيها المخلوق جزءًا ثابتًا من حركة الحياة حوله ، انتفض ــ فجأة ــ فسعى إلى الشاطئ المقابل ، ونفض الماء حوله ، فأغرق كل شيء .

"إبداع ــ فبراير ١٩٨٦"

المستحيل

حين تناهى الصوت للمرة الأولى ، عبر النافذة المغلقة ، بدا له غير مألوف . يختلف عن تلك الأصوات الزاعقة التي اقتحمت ــ لسنوات ــ حياته . فلما أغلق النافذة، تغلفت بالهمس ، وتطوحت إلى بعيد . كأنه تحطم أشياء ، أو صرخات مكتومة ، أو استغاثة مبهمة الكلمات ..

جلس ، وأرهف سمعه . مضت أعوام على إغلاق النافذة ، فذوت صورة الحياة في الخارج ، بهتت ملامح الحركة الغائبة . أشفق على التطلع من الخصاص . ترك للخيال الاستعادة وامتدادات التصور . مواكب الأفراح والموالد والطرق الصوفية ، مقهى "الاتحاد" بمناقشاته ونداءاته وسهرة إلى نهاية الليل ، حلاق الجمال ذو الباب الضيق ، تحجب داخله ستارة من حلقات الخشب الملون ، الفرجة المتسلية على صيد الجرافة ، رذاذ الموج على كورنيش الميناء الشرقية ، باعة السمك في مدخل السيالة ، الجماعات الوافدة ، قدمت من أماكن مجهولة ، فاستوطنت الحديقة المجاورة لمستشفى الملكة نازلي ، عربات الخس والترمس والباعة السريحة وترام رقم (٤) والملاءات اللف

والفساتين والبيجامات والجلابيب والأحذية والشباشب الزنوبة والأقدام الحافية ..

رجح أن يكون الصوت صرير عجلات عربة كارو في انحناءة الطريق .. لكن الصوت ظل على تواصله ، فاطمأن إلى أنه صوت آلة حفر في بناية قريبة .

خفت الصوت وتلاشى ، فتناسى ما حدث . عاد إلى عالمه ، ينام ويصحو ويأكل ويقرأ ويغني ويتأمل ، ويرنو إلى قادم الأيام بنظرات مسترخية ..

لم يكن أمامه سوى أن يغلق النافذة ، تلاغطت الأصوات: الزعيق والشجار والكلاكسات ونداءات الباعة . في الليل ، يتعالى الهدير من المقهى القريب: مناقشات ودعابات وضحكات وشتائم ، وترديد الجرسون لطلبات الزبائن ، والراديو الذي يواصل برامجه إلى نهاية الليل ، يختلط بدعوات ما قبل أذان الفجر في المرسي أبي العباس ، ثم تهدأ الحركة ، ويسود الصمت . يعمقه تكاثف الظلمة قبل طلوع الصباح . يتهيأ لإغفاءة ، فيضع الصخب الذي يبدأ ــ بالتدريج ــ دورته اليومية ، عناق النوم في إطار المستحيل ..

دانت الغلبة للمشاجرات ــ فيما بعد ــ على صخب الطريق . علت أصوات الشتائم وضرب الكراسي والنبابيت والشوم وسرينة سيارات الشرطة والإسعاف التي تقبل ــ في الأغلب ــ عقب انتهاء كل مشاجرة ..

قال له الحاج إبراهيم الخليل . بائع الحلوى في ناصية البوصيري:

ــ كأنك أهملت مشكلاتنا مع الجماعات الوافدة ؟!..

لم يخف استياءه:

ــ كنت أواجه المشاجرات بمفردي !..

ــ نقدر ما فعلت .. لكن الأحداث تحت نافذتك ..

ــ أزمعت أن أغلق النافذة !.

خفتت الأصوات في اللحظة التالية لإغلاق النافذة ، بما أشعره أنه قد انعزل ــ أخيرًا ــ عن الدنيا الصاخبة حوله. يستطيع الآن أن يمضي أيامه في هدوء ، لا تشغله الأصوات التي علا صخبها . داخله شعور أنه يمتلك بيته . نزع بيجامته ، تمشَّى بثيابه الداخلية ، تقلب في السرير ، تصفح كتابًا ، وأعاده إلى موضعه ، فتح الراديو ، فنقلته

نشرة الأخبار إلى العالم الذي كان قد قرر تناسيه . التصق بالصمت تمامًا ، ونام .

تعددت الأوقات التي يتصاعد فيها الصوت . تساوى الليل والنهار . فبدا مستمرًا . علا كأنه دوي المدافع . تسلل إلى نفسه خوف ، فطرد فكرة الاقتراب من النافذة ، ومحاولة التطلع إلى ما يجري في الخارج ، أهمل الكتب التي كان قد بدأ في قراءتها . شغله الصوت ، فلم يعد أمامه ما يفعله .

ضايقه السؤال الذي تراقص أمامه ، وهو يخطف ساندويتشًا :

لماذا أغلق النافذة إذن ؟..

اطمأن إلى تساند الأثاث على الباب المغلق . تكوم فكاد يغطي المدخل . زاد من شحوب أصوات الطريق تلاشى غالبيتها ، فلم يعد يصل إليه منها شيء . بدت الحياة ــ خلف النافذة ــ ساكنة ، لا زعيق ولا مشاجرات . رقت الأصوات تمامًا ، كأنها وشوشات النخيل في الميناء الشرقية ..

تنبه ــ مصادفة ــ إلى النافذة المغلقة . من السهل على مصدر الصوت اقتحامها . كان الباب قد تغطى بكل ما

في البيت من أثاث . دفع السرير أسفل النافذة وضع ــ من فوقه ــ المكتبة وأدوات المطبخ . اكتفى لنومه بحيز على حافة السرير . لم يعد بوسعه التقلب ، أو القراءة على الطاولة الصغيرة التي شكلت ــ مع بقية الأثاث ــ جدار الباب المغلق ..

علا الصوت وعلا . ارتج السقف والجدران ، واهتز السرير من تحته . جرى ــ بتلقائية ــ ناحية الباب . امتدت يداه كأنه يتقي سقوط النافذة . التف حول نفسه ، وتضاءل ، انكمش . حاصرته الوحدة فبكى ، أطلق صيحة فزع لما تهاوى الأثاث وراء النافذة وأطل المجهول ــ في الظلام ــ بنظرات ثابتة .

" الحرس الوطني ــ يناير ١٩٨٧"

هل ؟!..

– ١ –

علا صوتي ــ مهددًا ــ في غضب . تلاحقت الوخزات في صدري ، حادة ، قاسية ، فأغمضت عيني .

– ٢ –

قال الطبيب:

ــ ربما الوفاة جنائية ، ولابد من تشريح الجثة !..

همس سليمان ابن عمي ، في أذن شقيقي الأكبر محروس:

ــ أعط الطبيب شيئًا ، فيأمر بدفن الجثة دون تشريح ..

قال محروس في أسف:

ــ من أين ؟.. همي الآن أن أدبر تكاليف الجنازة !..

-٣-

بدا سليمان ملمًا بأحوال الموتى والجنازات والدفن . اشترط على الحانوتي أن يكون الكفن ستة أثواب من الحرير، ويرعى الله في الغسل ، فلا يبقى من "السانلايت" حتى البرودة ، ولا يدس في حقيبته زجاجة ماء الورد ، قبل أن تفرغ تمامًا ، ويبسمل ويحوقل ، ويتلو ما بوسعه من أدعية .

-٤-

سار في الجنازة أقارب وأصدقاء وجيران وزملاء عمل . ترددت الشهادتان ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، جرت الصلاة على الجثمان في المسجد القريب من البيت . رافق النعش – في الطريق إلى القرافة – محروس وشقيقي الأوسط سلامه وسليمان ابن عمي . تعالى "صوات" امرأة عابرة لمجرد المشاركة . صرخت أمي في ألم:

– أي تقاليد تحول بين أم ومرافقة ابنها إلى قبره ؟!..

-٥-

كان التربي قد انتهى ــ قبل وصول السيارة ــ من رفع "المجاديل" ، وتهيئة القبر . غلبت الآلية على تلاوة القارئ ، فنهره محروس:

ــ احترم التلاوة ، فنحن ندفع لك !..

-٦-

أصرت أمي أن تلمس الكفن بيدها ، قبل أن يدخل القبر . احتضنته بأصابع متشنجة ، فكادت تمزقه . تصورت ــ بإصرارها ــ أنها ستنزل معي ، أحاط بكتفيها محروس وسلامة ، حتى أعاد التربي "المجاديل" إلى موضعها ، وأغلق القبر .

-٧-

بدت الظملة كابية ، فتلاشت الأصوات تمامًا ، فيما عدا صوت جرذ ، عاد ــ بعد إغلاق القبر ــ إلى مألوف حركته .

-٨-

تحركت أيدي بالمجاديل ، فغادرت موضعها . تسلل نور ، وصوت التربي ينفذ إلى الداخل:

ـــ تأكد أن أحدًا لن يمر ، حتى أفرغ من نزع الكفن ..

-٩-

قررت أن أمنعه . دبر محروس ثمن الكفن بالكاد ، وأصر سليمان أن يكون ستة أثواب من الحرير ، واحتضنت أمي الجثمان ، قبل أن يتوسد التراب ..

اقتربت الخطوات بطيئة حذرة ، حاول أن يعالج الكفن بأصابعه لدقائق ، ثم تعالى صوته الهامس:

ـــ ناولني مطواة .. أخشى أن يتمزق الكفن !..

ومضى في اتجاه النور ..

-١٠-

غاب التربي ، وإن بدت أنفاسه قريبة . لو أني تحركت بصورة ما فلن يجازف بالاقتراب . أصبعي أو عيني أو فمي ، حركة خاطفة يلمحها ، فلا يقوى على فعل شيء ، يعدل عن محاولته ، ويظل جسدي مستورًا ..

فهل أحاول ؟ هل أحاول ؟..

"القصة ــ يناير ١٩٨٦"

حكايات وهوامش من حياة المبتلى

فاعلم ــ أعزك الله ــ أن صابر عبد السلام ، حين رفض المغريات ، وأصر أن يقيم في قريته ــ برغم سوء أحوالها ــ لا يغادرها ، فلأن والده الحاج عبد السلام [١]، روى له ــ ذات يوم ــ مجموعة من الأمثال ، رواها له أبوه الشيخ العتريس ، يذكر من بينها: من ساب داره ، اتقل مقداره .. البطيخة ما تكبرش إلا في لبشتها .. السمك لوخرج م المية يموت .. يا داري يا ساترة عاري ..

أزمع صابر ــ منذ تلك الليلة التي تمازجت فيها ظلمة الليل وضوء القمر على قسمات وجهه ، فبدت الكلمات كأنها وصية ، كأنها أمر عليه أن ينفذه ، كأنها نداء يجب أن يلبيه ــ أزمع صابر أن يظل قراريًّا [٢]، وألا يغادر قريته ، مهما تحيفته الظروف القاسية ، ومهما بدت المغادرة ــ بيسر أحوال المغادرين والعائدين في أجازات ، ورسائل المقيمين في الغربة ، والعز الواضح في استقرار الذي أنهوا سني الابتعاد ، وعادوا إلى الحياة في القرية ــ مهما بدت المغادرة مغرية ..

ولما سألته أمه ، إن كان سيكمل خطوات زواجه من ابنة عمه سلسبيل ، أو أنه سيفضل الإرجاء ليلحق بالمغادرين، قال صابر في حسم:

ــ لن أغادر قريتي بحال !..

(فصل)

تزوج صابر وسلسبيل ، بنى صابر بنفسه الحجرة التي أقاما بها في نهاية القراريط الثلاثة التي ورثها عن أبيه ..

ولما حاولت سلسبيل أن تساعده في عمل الحقل ، رفض . ثم ناقش الأمر مع نفسه ، ومع الآخرين . ووافق ــ أخيرًا ــ على أن تساعده سلسبيل بما لا ينهك جسدها الضعيف .

(فصل)

فاعلم ــ أيدك الله ــ أن قرار صابر عبد السلام ، أن يظل في قريته ، كان حرص الأجيال السابقة ، تشقيهم فكرة أن يجازف المرء بالسفر إلى المناطق البعيدة ، والمجهولة .

يقسمون بالله ، وبالأرض ، ويزرعون النخيل ليفيد من ثماره الأحفاد ..

كان الخير يكفي ، ويزيد . وربما وفد أقوام من الذين يحيا بينهم ــ الآن ــ مغتربو القرية ، فيجدون زادًا وزوادًا ، أو تبعث إليهم المؤن حيث يقيمون ..

زاد من صعوبة الأمر ، شاغل الجميع ، وما أنفقوه من جهد ومال ، ليستأنف الحجاج رحلاتهم . بعد أن أسرف قطاع الطرق في اعتراض القوافل ، وأقفلوا الطريق إلى بلاد الحجاز ..

(فصل)

فاعلم ــ أفادك الله ــ أن الحياة مضت بصابر وسلسبيل ، رخية هانئة . القراريط الثلاثة تثمر خضرًا وفاكهة وما تشتهي الأنفس ، يعملان إلى ما قبل الغروب (٣)، يبين الليل عن خلو البال في ضحكات وأغنيات ، وربما نقر صابر على الطبلية في إيقاع منتظم ، وسلسبيل تتأود أمامه ــ في حياء ــ بجسدها اللدن الجميل ..

(فصل)

مثل السحابة السوداء التي تحجب ضوء الشمس ، فتحيل النهار ليلاً ، هبط المرض على جسد صابر ، أبان عن نفسه في ضمور البنية ، وتساقط الشعر ، وذبول الشفتين ، وتلاشي البريق في حدقتي العينين ، كأنهما تعميان ..

بدت سلسبيل ــ أمام ما حدث ــ فاقدة الحيلة ..

سألته إن كان قد تناول طعامًا خارج البيت ، أو تردد على الغرزة الواقعة في مدخل القرية ، أو استحم في الترعة، فلحقته أمراضها ..

نفى صابر كل البواعث ، وإن صارح زوجه ــ لما اشتدت عليه تباريح المرض ــ أن الأشرار ــ فيما تروي الشائعات ــ جاوزوا ترويع الآمنين ، وقطع الطرق ، ومنع القوافل ، إلى الدس بالسم والربط ، وغيرها من أفعال السحر والتنجيم ..

قالت سلسبيل:

ــ وما شأنك بطريق الحجاز ؟

قال صابر:

ـ السفر فيه أمنيتي الدائمة [٤].

(فصل)

أقعد المرض صابر ، فلزم البيت ..

باعت سلسبيل ثمار الأرض [٥]، وأنفقت على علاجه. أخفق الأطباء في التعرف إلى بواعث المرض ، فاختفت الأدوية ووسائل العلاج ..

تنازلت سلسبيل ـ بطيب خاطر ـ عن خلخالها الذهبي ، وما كان أهداه لها صابر ، في الأيام الخوالي .. لكن المرض ظل ساكنًا في جسد صابر ، يرفض الأدوية ، ووصفات المجربين ..

صارت الحيرة عجزًا ، عندما صارحها طبيب بأن المرض يستعصي على علم الأطباء ، وأن عليها أن تنشد منجمًا ، أو ساحرًا ، أو تأمل في رحمة الله ..

(فصل)

فاعلم ــ أعزك الله ــ أن الروايات تناقضت فيما جرى لصابر وسلسبيل ، وإن التقت جميعها في تيقن المرأة من عجز الطب عن مداواة المريض ..

استعاذت بالله من الشيطان الرجيم ، طافت بأضرحة الأولياء والصالحين ، نذرت النذور ، التمست التمائم والأحجبة والوصفات والرقي والتعاويذ . رقصت ــ لشفاء صابر ــ في حفل زار استحضرت أرواح القدامى والراحلين ..

غادرت سلسبيل ــ للمرة الأولى ــ بيتها . لم تكن الغربة مما يدور لها في بال . كانت تحب الغيط والبيت الصغير والنهر والزراعة وأشجار الصفصاف والقيلولة والليالي المقمرة ... لكن المريض انكمش في نفسه ، فلم يعد ما يشي بحياته سوى أنفاس ضعيفة ..

كان لابد أن تجري عليه ..

زارت مدنا وقرى . ونامت ــ بنصف عين ــ في المساجد والزوايا والتكايا وحنايا السلالم والحدائق العامة .

منعها الحياء ، فلم تبح بما بات عليه حالها ، وإن أفاضت في التحدث عن العليل الذي كان ــ قبل أن يدهمه المرض ــ زين الشباب ، وأبرهم بأهله وناسه والأقربين ..

(فصل)

فلما كان اليوم الثاني والستون بعد الأربعمائة ، جلست سلسبيل إلى شيخ في قرية بعيدة ، تشكو همها ..

قال الشيخ وهو ينكت الأرض بعصًا في يده:

ــ كنا نرافق أبناء قريتكم في طريق الحج ، قبل أن يغلقه الأشرار ..

ورفع حاجبيه ، تعبيرًا عن الدهشة:

ــ كانت حياتهم بلا هموم .. فماذا جرى ؟

(فصل)

فلما كان اليوم الرابع والثمانون بعد الألفين ، صحت سلسبيل على عينين تطيلان النظر إلى صدرها الذي تمزق عنه ثوبه ..

دارت صدرها بكفيها ، وبكت ..

(فصل)

فلما كان اليوم الثاني عشر بعد الستة آلاف ، أولت سلسبيل ظهرها إلى ضريح الإمام الشافعي ..

قالت:

ــ أخاصمك !..

خافت من غضبه ، فأردفت:

ــ هدني السفر للبحث عن دواء لصابر المسكين ، فساعدني !

(فصل)

فلما كان اليوم المائة والسبعة والتسعون بعد العشرة آلاف ، فتح صابر عينيه ، وسأل:

ــ هل عدت ؟..

قالت سلسبيل:

ــ كنت نائمًا ..

ـــ ومتى لم أكن نائمًا ؟!

ـــ أملنا في رحمة الله !..

ـــ لا فائدة .. فلماذا تروحين وتجيئين ؟!

ـــ مادمنا نحيا ، فإن الأمل قائم !

ـــ لا فائدة .. وأحلك من ..

قاطعته:

ـــ سأظل زوجتك ، فلا تعذبني !..

(فصل)

فلما كان اليوم التاسع والعشرون بعد الأحد عشر ألفًا. أنهى طبيب ذائع الصيت ، عالي المكانة ، فحوصه وتحليلاته في جسد المريض الذي تضاءل ، فبدا كقطع متداخله من اللحم ..

زاد الطبيب ، فقرأ الطالع ، وعاد إلى الوصفات التي تداوى بها المريض ..

قال لالتماع القلق في عيني المرأة:

ــ المريض تمنى شيئًا ، فاستعصى عليه ..

ــ كانت القناعة حياته ..

هتفت متذكرة:

ــ السفر إلى بلاد الحجاز أمنيته الدائمة ..

ــ فلماذا لم يسافر ؟

ــ منعه قطاع الطرق ..

نقر الطبيب المكتب بأصبعه:

ــ هذا هو السبب !..

(فصل)

فأما الآراء التي ناقشت أفعال قطاع الطرق ، فقد حكمت عليها جميعها بالإدانة ، وأنها مرادفة للحرابة . وجزاء الذين يرتكبون جريمة الحرابة ، ويسعون في الأرض فسادًا ، بقطع الطريق ، أو يقتلوا ، أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض [٦].

ظلت الطريق إلى بلاد الحجاز مقطوعة ، وشفاء صابر هم سلسبيل وشاغلها ، تعددت أسفارها إلى بلاد طالما التقت بأبنائها في شوارع القرية ، وإن لم يخطر في بالها ــ يومًا ــ أنها تسافر إليهم ، تشرح الأحوال ، وتطلب الغوث ، أعلن الأطباء حيرتهم ، وأخفق السحر والتنجيم والنذور والوصفات وقراءة الطالع ..

أمل الشفاء في سفر المريض إلى بلاد الحجاز ، بالطريق التي ألفها ، أمنيته التي طالما أضمرها ، وباح بها . الحرابة عائق ينبغي أن يزول. يبين الأمل في الشفاء عن تألقه ، يعود السمر والضحكات والغناء وليالي الحصاد ..

تطرح سلسبيل الأسئلة هل ؟ وكيف ؟ ومتى ؟..

وتنتظر .

الهوامش

(١) كان حجة ــ حيث لبى نداء ربه ــ بالسير على قدميه ، من قريته صفط زريق ، التابعة لزمام مديرية الشرقية ــ محافظة الشرقية الآن ــ إلى بلاد الحجاز ، عبر صحراء سيناء ، وصحارٍ أخرى بعدها ، حتى أذن الله أن يؤدي فريضته .

(٢) القراري ــ كما تعلم ــ هو ذلك الذي يرتبط بأرضه إلى قرارها ، فمن المستحيل أن يتركها .. .

(٣) كانا يحرصان ــ في الوقت نفسه ــ على راحة القيلولة .

(٤) فاعلم ــ غفر الله لك ــ أن صابر عبد السلام كان يحمل قلبًا ينبض بالرحمة ، يشرق النور في داخله . يغيث الملهوف . يساعد المحتاج. يقتر على نفسه ويكرم ضيوفه . يحدث من يلقاه ــ للمرة الأولى ــ كأنه يعرفه من زمان.

يوقر الكبير والصغير ، ويحترم الناس كافة . يعود المرضى . يشارك في الأفراح والمآتم يساعد الغلابة والضعفاء والمنكسرين . يفيض بالمحبة تجاه الآخرين . حتى الذين يواجهونه بالإساءة ، يغض النظر عن إساءاتهم ، إلا فيما يتصل بكرامته . يحرص على نظافة جسمه وملبسه وطهارة نفسه ولسانه . يصلي الفروض في أوقاتها . يعشق النكتة والعبارة اللماحة . أمنيته التي كثيرًا ما حدث بها زوجه وأصدقاءه ، هي السفر إلى بلاد الحجاز من الطريق نفسها التي سافر فيها أبوه عندما انتوى أداء فريضة الحج ...

(٥) بأقل من أسعارها أحيانًا .

(٦) عرف الإمام الشافعي الحرابة ، بأنها البروز لأخذ المال ، أو لقتل أو إرهاب . وعرفها الإمام أبو حنيفة بأنها هي الخروج على المارة بأخذ المال على سبيل المغالبة ، على وجه يمنع المارة عن المرور ، ويقطع الطريق . أما

الإمام ابن حنبل ، فقد عرف الحرابة بأنها تعني التعرض للناس بسلاح في صحراء أو بنيان أو بحر ، فيغصبونهم مالهم ، قهرًا ومجاهرة ، أو يقتلونهم لأموالهم . وأما الإمام مالك ، فيرى الحرابة في قطع الطريق لمنع سلوك المارة ، أو أخذ الأموال على نحو يتعذر معه الغوث ..

حكايات فات أوان روايتها

لما غابت الشمس ، وحطت على المكان غمامة سوداء ، تصورنا أنها سحابة طارئة ، تمضي في طريقها نحو الشمال .. لكن الريشات الهائلة ، المتداخلة في الغمامة ، دفعتنا إلى الفرار ، وأعيننا ترقب الطائر الضخم ، كأنه الرخ الذي تتحدث عنه الحواديت ، وإن بدت ملامحه أقرب إلى النسر ، في حجم يفوق آلاف المرات صورته التي اعتدناها . تيقنا مما رأيناه ، ونحن نلتصق بأطراف الحديقة الواسعة ، وبدا الجناحان ، والجسد ، والرأس .

ومضى الطائر بعيدا ..

غالبنا التردد ، واقتربنا مما خلفه الطائر : بيضة هائلة توسطت الحديقة ، نقر أحدنا عليها بإصبعه ، ثم عدل عما فعل ، وجرى ، وجرينا خلفه ، وفي كل اتجاه ، عندما أظلمت السماء ثانية باقتراب الغمامة السوداء ...

أقلع الطائر ، فخرجنا من مخابئنا ، ومن البيوت والشوارع القريبة ..

كانت البيضة الهائلة في مكانها ..

حاولنا تبينها ، لكننا أسرعنا بالفرار حين علت الغمامة السوداء رءوسنا ..

قال راشد عثمان محذرًا:

ـ لا تقتربوا من البيضة .. يظل الطائر بعيدًا ..

قال زكي عبد الحليم:

ـ وهل تظل البيضة بيضة ؟

قال عبد المجيد عنتر:

ـ ماذا تقصد ؟..

قال راشد عثمان:

ـ لابد أنها ستفقس يومًا !..

قال عبد المجيد عنتر:

ـ بداخلها طائر .. سيلحق بأمه !

قال زكي عبد الحليم:

ـ فإن ظل في الحديقة ؟..

قال راشد عثمان:

ــ الطائر أتى من بعيد .. ولابد أن يلحق به أبناؤه ..

عاود زكي عبد الحليم السؤال في إصرار:

ــ فإن ظل الطائر الوليد ، المرتقب ، في الحديقة ؟..

قال راشد عثمان:

ــ سنواجه الطائر ، وما بداخل البيضة !

علا صوت عبد المجيد عنتر بالحيرة:

ــ فلماذا لا يحدث ذلك الآن ؟.. لماذا نكتفي بالانتظار ؟!..

أردف في تأكيد:

ــ إذا فقست البيضة ، فسيعود إليها الطائر الغريب .. وقد لا يغادر المكان ..

لكن البيضة ظلت في موضعها ، والطائر يرانا ، ولا نراه ، يهبط بجناحيه على الحديقة ، كلما اقترب أحدنا من البيضة ، يثور الغبار ، وتعلو أمواج الشاطئ تصطدم بالكتل

الحجرية ، فتندلق المياه في الشارع . يشغلنا: ماذا بعد أن تفرخ البيضة ؟..

علت الأصوات في البيوت ، وفي القهاوي ، وداخل الدكاكين ، وعلى البلانسات ، وفي زحام شارع الميدان ، وأثناء الانشغال بصيد الجرافة ، وعقب أداء الصلوات في الجوامع ، وفي الموالد ، وعلى شاطئ الكورنيش . همنا التصرف قبل أن تفقس البيضة ، ويظهر ما لم نكن نتوقعه ..

طال النقاش ، والأخذ والرد ، والرأي ، والرأي المخالف ، والتأكيدات المقتنعة ، والتسخيف ، وتبادل الاتهامات .. حتى هبط الطائر على البيضة ذات ليل ــ بجناحية ــ وطال رقاده عليها ..

أدركنا أن أوان فقس البيضة قد حان ، وليس في مقدورنا ما نفعله .

حارة اليهود

مضى في قلب حارة اليهود ، يميزه قامة أميل إلى القصر والامتلاء ، ورأس مهوش الفودين ، وشعر كثيف يفز من فتحة الجلابية ، أعلى الصدر . بادي الصحة بما يلفت النظر . يعرفه المارة والجالسون ، فهم يتقونه بإلقاء السلام ، أو بالدعوة للضيافة ، أو بعدم الالتفات . وثمة روائح غريبة، نفاذة ــ وإن ألفها ــ تأتي من داخل البيوت ونجمة داوود متداخلة في الأبواب والشرفات ..

تمنى ــ بينه وبين نفسه ــ لو أن هؤلاء الجالسين في الدكاكين ، والواقفين على النواصي ، المطلين من النوافذ ، تحرشوا به شاكلوه مثلما فعلوا مع علي الصغير . ينهي المسألة بمفرده . يطيح فيهم بيديه ، يفش الغل الذي يخنقه منذ سنوات . ليست المسألة في مشاكلة علي وإيذائه . يستطيع الوصول إلى الفاعلين . يترك لأصدقائه أمر تأديبهم ، فلا يعودوا إلى أذية الناس ، أو يتركوا الحي بلا عودة . الثأر شخصي ، لا يقف عند فرد أو أفراد . يمتد إلى حارة اليهود كلها . ناسها وبيوتها ودكاكينها ومعاملاتها . أفلسوه في يوم وليلة . مهدوا لذلك سنوات ، بالقروض والشيكات المؤجلة والبضائع الأمانة ، ثم هطلوا كالسيل دفعة واحدة . أصبح

دكان المصوغات والمجوهرات ملكًا لمن دفع السعر الأعلى. يسرع في خطواته إذا سار أمامه . يصعب عليه النظر ، ولو بطرف عينه . الهم تصاعد داخله ، ملأه ، حتى تمنى الموت. لما جاء الولد علي يبكي الإهانة ، قرر أن يصفي الحساب كله . يكون الدرس في حجم التأثير المطلوب ، يعرف اليهود أنهم يسكنون الحارة ، ولا يملكونها . من حق الناس أن يمشوا في الشوارع ، والأزقة ، دون خوف أذى ..

هل ضربوا علي الصغير في خناقة بين أطفال ، أو أنهم كانوا يعرفون أن الولد ابنه ؟ سأله عن الأولاد: هل هم أصحابه ؟.. وهل يعرفون من هو ؟.. وهل تحرش بهم ، أو ضربوه بلا سبب ؟.. روى الولد ــ في مكانه ــ ما حدث: آذته المفاجأة أكثر مما آذاه الضرب . وجد نفسه وسطهم . أحكموا حصاره في حارة خميس العدس ، وانهالوا عليه بالضرب القاسي ، المتواصل ، بالأيدي والأقدام والعصي الصغيرة ، أنقذه مرور موظف بدار سك النقود . صرخ في الأولاد ، فابتلعتهم البيوت والحواري الجانبية . أكد الموظف ــ لما سأله جعلص ــ كل ما قاله الولد علي ..

أردف الرجل في تأثر:

ـــ حتى الكبار لم يعودوا يأمنون على أنفسهم إذا ساروا في الحارة .

أذهله صبحي أفندي منصور ، مأمور قسم الجمالية ، عندما كلمه فيما حدث . أشار الرجل إلى كتفه ، وقال في أسى واضح:

ـــ ماذا تقول في إلقائهم الوسخ من نافذة ، على مأمور القسم ؟

غالب الدهشة:

ـــ كيف ؟..

قال المأمور:

ـــ كنت أختصر الطريق من الموسكي إلى القسم ..

في عدم تصديق:

ـــ ربما لم يعرفوا من أنت ؟..

قال المأمور:

ـــ والبدلة الميري ؟..

ـــ لعل الوسخ ألقى عفوًا ، أو خطأً ؟..

ــ والضحكات التالية لما حدث من المطلين في النوافذ ، والجالسين أمام الدكاكين ..؟

وهو يضرب جبهته بقبضة يده:

ــ هذه مصيبة !..

دلك المأمور بأصبعيه تحت أنفه:

ــ تكررت المصائب كثيرًا في الفترة الأخيرة ..

أخلى وجهه للغضب:

ــ هل تأذن لي في التصرف ؟..

قال الرجل وهو يعاني:

ــ أنا موظف رسمي .. أحتاج إلى التدقيق والإثبات ومراعاة الحساسيات .. أما أنت ..

وعلا صوته:

ــ تصرف يا جعلص !..

لم يكن من الفتوات ، ولا سعى إلى جعل الفتونة مهنته ، شاهده الخواجة السائح في خان الخليلي ، أعجب بصحته البادية . سأله عن مهنته ..

قال:

ــ كنت صائغاً ..

أضاف للتساؤل في عيني الرجل:

ــ أبيع الذهب والمجوهرات ..

ــ وماذا تعمل الآن ؟..

قال في بساطة:

ــ أفلست .. وأعمل الآن في حمل الخزائن ..

مط الرجل شفته السفلى ، وقال في إعجاب:

ــ مهنة مناسبة لمن هو في قوتك ..

عرض أن يصوره في إعلان للبيرة الفرنسية ، رفض في البداية ، ثم وافق لما أقنعه الخواجة بأنه سيمسك كأس البيرة ، ولن يحتسيه . ذكر الخواجة وهو يضغط على ساعد محمد العسال كلمة "مجانص" . التقطها أبناء الحي الملتفون حولهما. حولوها إلى جعلص . صار اسمه ــ من يومها ــ محمد جعلص ..

شارك في مظاهرات ثورة ١٩١٩ ، وهاجم جنود الإنجليز في البارات ، وفي الأماكن المظلمة ، وفتح الطريق ــ أحياناً ــ أمام موكب سعد زغلول ، حين كان يفضل المشي بين الناس . لكنه لم يخض معركة ، ولا حاول أن يجعل نفسه فتوة كباقي فتوات الأحياء . حشدوا الأعوان ، وخاضوا المعارك ، وفرضوا الإتاوات . دانت لهم السيطرة، واعترفت بها الحكومة ، استعانت به أقسام البوليس في استعادة الحقوق الضائعة ، والبحث عن المخطوفين والغائبين. حاول عنتر إدريس فتوة محمد علي ، أن يمد سطوته إلى المناصر وما حولها . ظن أنها بلا فتوة ، فنشر أعوانه ، ومضى يطلب الإتاوات وثمن الحماية ، تصدى له محمد جعلص . استغاثت به جارة ، أخذ أعوان الفتوة كيس النقود من يدها . لم يخض المعركة إلا بعد أن بصق الفتوة على رجائه بأن يعيد الكيس إلى المرأة الغلبانة . سار في طريقه ، والأعوان من حوله . اختطف جعلص الشومة بسهولة من يد الفتوة . أطلق عنتر إدريس صرخة ألم ، وهو يعاني ــ بتأثير الضربة المباغتة ــ تخلخل ساقيه . لحقه في الموضع نفسه بضربة ثانية . تهاوى إلى الأرض بجسده

العملاق ، استغل جعلص المفاجأة ، فطاح بشومته في الأعوان . تساقطوا جرحى ، أو فروا . تعالت الزغاريد من النوافذ والمشربيات ، ومن وراء الأبواب المواربة . عرف فتوات الأحياء الأخرى أن محمد جعلص هو فتوة المناصرة ، وإن لم يمارس الفتونة ولا سعى إلى التكسب منها ..

عرض الكثير من شبان المناصرة ، ومن مساعدي فتوات الأحياء القريبة ، أن يعملوا معه . الفتوة يطيح بضرباته ، والأعوان يتلقون الضربات . عيب أن تصل إلى الفتوة ضربة واحدة . تلك أصول الفتونة . اعتذر جعلص بأن إيراد دكانه يغنيه عن الفتونة ، وعن العمل عند الآخرين قال:

ـ سألجأ إلى أصدقائي إذا تورطت فيما لا أستطيع مواجهته بمفردي !

لم يبدل مشواره اليومي من المناصرة إلى حارة اليهود ، يقضي يومه في الدكان ، ويعود آخر النهار . ربما قضى ساعة في قهوة التجارة ، يلتقي بشبان المناصرة ، ممن لا تأذن التقاليد باستقبالهم في بيته ، أو استقباله في بيوتهم ، يشرب الشاي بالنعناع ، ينصت إلى ذكريات قدامى الفنانين ،

يهز رأسه ويدندن ، لاختبارات آلاتهم ، يرد بابتسامة على رأيهم بأن يستغل مظهره في عروض السيرك ، أو في الفرق المسرحية ..

قال للمعلم الحلو الكبير:

ــ كم سأتقاضى من العمل في السيرك ؟..

لون الحلو صوته بنبرة إغراء:

ــ سأعطيك جنيهين كل ليلة ..

وهو يطلق ضحكة من أنفه:

ــ إيرادي في الدكان يزيد على عشرة جنيهات .. فما يدعو إلى مرمطة نفسي أمام الناس ؟..

مات ناجي العقيلي ، صاحب الدكان الملاصق . اشتراه ، وزاد في عمله . أغراه التجار اليهود بالذهب المستورد . قدموا له البضائع أمانة . وبالشيكات المؤجلة . اتسعت معاملاته وأمواله عند الزبائن ، وزادت الثقوب فلم يستطع سدها ..

انتظر حتى انصرف الشاب والفتاة من دكان عبد العظيم هريدي .

قال:

ــ أغلق دكانك الآن !..

ثم وهو يشير بيده:

ــ وادع زملاءك إلى إغلاق دكاكينهم ..

علا حاجبا عبد العظيم هريدي:

ــ لماذا ؟..

قال محمد جعلص:

ــ بيني وبين سكان حارة اليهود ثأر .. سأصفيه !..

قال هريدي:

ــ كل الحارة ؟

ــ زادت التصرفات المجرمة .. فصار من الواجب تأديب الحارة كلها ..

قال هريدي:

ــ بمفردك يا جعلص ؟..

ــ طبعا لا .. استقدمت مجموعة من بلدياتي في الصعيد .. فطنتهم على المسألة وما يجب علمه ..

أدار عبد العظيم هريدي نظرات متلفتة وراء محمد جعلص:

ــ أين هم ؟..

أشار بإصبعه:

ــ ينتظرون في ميدان الحسين ..

غالب هريدي تردده:

ــ سأغلق الدكان وأظل معك ..

هتف بعفوية:

ــ لا .. دكانك في دائرة سطوتهم .. ربما آذوك !..

ــ هل تظن أني أتركك بمفردك ؟..

أردف وهو يتهيأ للقيام:

ما يجري عليك يجري على أصدقائك ..

سد الرجال كل المنافذ المفضية إلى حارة اليهود ، في الحسين وبيت القاضي والموسكي ، تأكدوا من الأبواب الخلفية للبيوت والدكاكين والمخازن ، فلا يفلت أحد ..

حتى لا يتورط الرجال في جرائم ، شدد عليهم ، فلم يحملوا سوى الشوم والنبابيت . أخذ مطواة في يد متأهبة . ألقى بها داخل بالوعة . قال في لهجة محذرة:

ـ نريد التأديب لا القتل !..

لما اطمأن إلى إغلاق مخارج الحي ، أعطى الإشارة، وتقدم الرجال . سدوا الشوارع والحارة والأزقة بأجسامهم . أدرك فتوات اليهود ما ينتويه . أسرعوا بإغلاق الدكاكين والبيوت . أخذوا ما استطاعوا حمله ، وخرجوا: شوم وعصى ونبابيت وسكاكين وخناجر ، طاح فيهم بقبضته وشومته . علت الصيحات والصرخات والتأوهات ، وانبثق الدم ، تعالى الصوات من النوافذ والشرفات . فتحت الأبواب تستقبل الأقدام الملهوفة . لم يلحق الدكاكين دمار ، ولا سرقت البضائع المعروضة . انهالت الضربات على الأجساد وحدها . من يسقط يرفعون عنه ضرباتهم . يتجهون إلى آخرين ، أغلقت أبوب البيوت قبل أن يدخلوها ، أو سحبوا

من داخل الدكاكين . طاردوهم في أزقة الصاغة الضيقة . حرصوا أن تكون الضربات موجعة ، وإن فطنوا إلى انتظام الأنفاس .

* * *

سحب كرسيًّا من البان المالكي ، وجلس . أغمض عينيه ، وتنفس الراحة . تصخب من حوله الدعوات والابتهالات والمدد والتسابيح ونداءات الباعة وأغاني الفونوغراف وصيحات المجاذيب ورائحة البخور والشواء والطعمية والسبح وغزل البنات والبصقات والشتائم والضحكات والبكاء والزغاريد والبدل والجلابيب والملاءات والطرابيش والعمائم واللبد والأعلام والبيارق والسوارس والكارو ودقات النقرزان وتلاشي الظلال في شمس الظهر ..

قال وهو يسند الشومة على الجدار:

ــ علقة .. لن يعودوا بعدها إلى أذية الناس ..

قال عبد العظيم هريدي وهو يتأمل جرحًا في مرفقه من ضربة خنجر:

ــ هل تظن ذلك ؟..

حدجه بنظرة متسائلة . ضغط على شفتيه بأسنانه ، يختار الكلمات . أطلق أف بآخر ما عنده ، وسكت .

***

حاشية: الثابت ــ تاريخيًّا ــ أن محمد جعلص مات في أواخر العشرينيات . دخل في قدمه مسمار ، وهو يسير ــ حافيًا ــ داخل بيته . أشار الطبيب الشهير علي باشا إبراهيم بضرورة بتر الساق ، حتى لا تلتهم الغرغرينا الجسد كله ، رفض محمد جعلص أن يحيا بجسد ناقص .

نبوءة عراف مجنون

– ١ –

اقترنت رؤيته بطفولتي الباكرة ، فلا أدري على وجه التحديد ، متى بدأت ألتقي به في شوارع الإسكندرية ، المؤكد أنه مضت سنوات ، ربما عشرون عامًا أو أكثر (منذ بدأت أعي الناس والأشياء من حولي وأتذكر) وهو يذرع الشوارع، هادئًا صامتًا في البداية (تلك التي لا أدري متى كانت على وجه التحديد) حتى النهاية الغريبة المحزنة (هل هي النهاية بالفعل ؟) .. المؤكد أيضًا (ولقد كنت طيلة السنوات أحرص على التدقيق في ملامحه ، ومتابعة تصرفاته) أن صورته الظاهرة لم يطرأ عليها تغير واضح . قبل أن يغادر طبيعته ، ويعبر الأسوار التي ظل حريصًا على ألا يتجاوزها . فالعينان ملتمعتان كأنه فرغ ــ لتوه ــ من البكاء ، أو أنه يتهيأ له ، ومنابت الشعر ضعيفة في جانبي الشارب ، فهو يكتفي بمساحة السنتيمتر تحت الأنف مباشرة ، والحرص على الأناقة واضح في البدلة الكاملة ــ حتى في عز الصيف ــ والقميص ذي الياقة المنشاة ، وربطة العنق التي أحكم ربطها ، ثم في تلك المشية المميزة التي كانت في الحقيقة أول ما شدني إليه .

-٢-

كنت أحاول أن أساير أبي في خطواته الواسعة . رسغي في يده . وشارع الميدان يشغي بالخلق الذين خرجوا لشراء لوازم العيد .. ولم يكن ذلك فقط هو كل ما يشغلني (أعني أن تساير خطواتي القصيرة خطوات أبي الواسعة ، والمسرعة) كنت مشغولاً بمتابعة همهمات أبي لنفسه ، كان حزيناً ــ لسبب أتبينه الآن ــ وكانت همهماته تعلو . فتصبح كلمات واضحة المعالم ، أتذكر من بينها "أولاد الكلب" . لم أكن أعرف هؤلاء الذين يوجه إليهم أبي همهماته ورأيه الغاضب. ولم أحاول ــ بالطبع ــ أن أعرف ، فقد كان أبي حزيناً لدرجة أحسست بها في تقلصات أصابعه حول رسغي .. وقبل أن ندلف إلى سوق (النقلية) رأيته: سحنته المألوفة ومشيته المميزة ، وتصرفاته التي كانت ــ برغم هدوئها ــ تستلفت الانتباه (المؤكد ــ كما قلت لك ــ أن هذه لم تكن المرة الأولى التي ألتقي به فيها ، ولكنها هي أول ما أتذكره من لقاءاتي به) فرد ذراعيه بامتدادهما . كأنه يفسح لنا الطريق . تسلل شعاع باسم في غيوم أحزان أبي ، فتشجعت، وتوقفت نظراتي على الرجل الذي بدا أنه يفسح

الطريق لكل الداخلين إلى السوق وتنبهت إلى جذبة غاضبة من أبي .

-٣-

التقيت به في أماكن كثيرة . السحنة المألوفة والمشية المميزة والتصرفات التي تثير الانتباه . غابت الصورة في إطار المألوف ، فلم يعد يشدني . حتى نظرات الناس التي كانت تتراوح بين الإشفاق والسخرية ، انتهت إلى الحياد ، وإلى تركه منعزلاً في جزيرته . وكان الناس مشغولين ــ أيامها ــ بالحديث في حرب فلسطين والأسلحة الفاسدة وخيانات الزعماء .

ويومًا (بالقطع ليس هو اليوم الذي رأيته فيه) غادر المألوف عادته . لم يتجاوز التصرفات الهادئة ، لكنه اختار السير على الأرصفة ، يرخي يديه ويرفعهما ، كأنه يرحب بصديق لا نراه .. ولأنه اختار شارعًا مزدحمًا (كان لقائي به في شارع السبع بنات) فقد أفسح له الناس طريقًا، وعادت النظرات المتباينة بين الإشفاق والسخرية (أتذكر يومها أن

أبي كان بادي الانزعاج لحريق مروع التهم أضخم مباني القاهرة).

-٤-

كنت في مشواري اليومي من المدرسة في محرم بك إلى البيت في بحري (المفروض أن يكون هذا المشوار بالترام ، لكنني كنت أدخر القرش ، قيمة تذكرة الدرجة الثانية ذهابًا وعودة ، وأفضل السير على قدمي) وكنت مشغولاً بالامتحان الذي اقترب كثيرًا (قال مدرس اللغة العربية أنه يضمن لي المجموع النهائي وقال مدرس الرياضة أن الصفر هو الدرجة التي أستحقها) عندما رأيته .. هل هذا هو؟.. كان يتوسط الشارع بسحنته المألوفة ، ومشيته ، وتصرفاته التي تثير الانتباه . رفع يديه .. فلم تعودا ترحبان بالصديق الوهمي ، إنما هما ترتفعان إلى أعلى ، وتهبطان إلى الأذنين ، كأنه يكبر ، أو أنه ــ في الأصح ــ يرد بالتحية على دعوات وهتافات غاب أصحابها . لاحظت أن الناس ــ حتى راكبي السيارات ــ لم يلتفتوا إليه .. طرد الملك في الليلة السابقة ، وكانت الثورة الوليدة مثار نقاش لا ينتهي ..

-٥-

انشغلت بمتابعته . كان الإشفاق يتملكني وهو يسير وسط الشوارع المزدحمة بالسيارات ، ويداه ترتفعان وتنخفضان ، يحي جموعًا غير مرئية . والبعض ألف رؤيته فلم يعد يلتفت إليه . والبعض يتابعه بنظراته المندهشة حتى يغيب ، شغلني التفكير في حياته . وأنا في البيت ، وأنا في المدرسة ، وأنا في الطريق ، وأنا في أي مكان . وكنت أبحث عنه ــ أحيانًا ــ في شوارع وسط البلد ، فلا أستريح حتى ألتقي به . وشتمني أبي ــ ذات مغرب ــ لما سألني أين كنت ، وتهربت من الجواب الحقيقي .

-٦-

كان ما حدث تحولاً ، دفعني إلى السير بجواره ، والتأكد مما أراه وأسمعه (كان ذلك في اليوم التالي لإعلان قيام الجمهورية) لم يعد يكتفي برفع اليدين وخفضهما ، وإنما صاحبت الحركة المتكررة كلمة واحدة ، راح يرددها بصوت هادئ ، وإن غلب عليه الانفعال: النصر !.. !.. !.. ن .. ص .. ر .. وهو يوازن ما بين حركة اليدين والكلمة التي لا

تتغير . تابعته على الرصيف الموازي من شارع شريف إلى ميدان محمد علي إلى شارع توفيق فشارع عبد المنعم فالعطارين حتى مبنى المحافظة . كنت قد ابتعدت كثيرًا . فعدت وأنا أفكر .

–٧–

ثمانية عشر عامًا ــ بالتحدي ــ بعدت فيها عن الإسكندرية . أصبحت المدينة ــ بالرغم مني ــ حنينًا عامًا ، يرفض التفاصيل وإن قفزت إلى الذهن ــ في أحيان كثيرة ــ صور واضحة ــ أو شاحبة ــ المعالم: ليالي المولد النبوي في أبي العباس ، خيالة الملك في جولتها الصباحية ، بائعو الصحف والفشار في ميدان محطة الرمل ، رذاذ الأمواج المتطاير على سور الكورنيش ، تشفعات الولايا في سيدي نصر الدين ، سباق البلانسات في الميناء الشرقية ، زحام شارع الميدان وصخبه وخناقاته .. وكنت أتأثر لصور الذاكرة كثيرًا وأقرر ــ بيني وبين نفسي ــ أن أغادر الطوق الذي يحيط بي ، وأزور الإسكندرية في أقرب فرصة .

-٨-

مع أنه لم يحتل أي موضع في ملايين الصور التي انثالت على الذاكرة خلال الأعوام التي بعدت فيها عن الإسكندرية ، فإني تذكرته حالاً لما انتويت العودة إليها لإنهاء بعض الأوراق المتعلقة بهجرتي إلى الخارج ..

كأنه كان ينتظرني ، وإن بدا على غير الصورة التي عرفته فيها .. غابت السحنة المألوفة والمشية المميزة والتصرفات الهادئة .. وكانت تشدني إليه الحركات الصامتة، التي أضاف إليها ــ في ختام أيامي بالإسكندرية ــ كلمة واحدة ، لا يكاد صوته يبين بها: النصر .. لكنني ــ هذه المرة ــ رأيته في صورة مغايرة .. كانت قدماه قد تدلتا من الباب الأيسر في ترام الرمل ، وشعره الأبيض المنكوش تهدل على جبينه وعينيه .. وقبضتاه تقذفان الهواء .. والزبد يتطاير من شدقيه ، والصيحات متلاحقة الكلمات ، لم يتضح في سمعي منها سوى الكلمة القديمة: النصر !.. (وكان أبي قد مات ، وباع أخي الأكبر بيت الأسرة في الموازيني ، وطرأ على الصورة السياسية تغير واضح) ودهشت لأن الناس كانوا يعبرونه بنظراتهم . حتى هؤلاء الذين وقفوا

بجانبه ، أهملوه تمامًا . بدا وحيدًا ومنعزلاً ومسكيناً . وأيقنت أن هذه صورته منذ زمن ، فألفها الناس .

الثقافة ١٩٧٧

أحمس يلقي السلاح

– ١ –

أف ف ف . نظر ــ بتلقائية ــ وراءه . لمح الجندي وهو يعيد الحاجز الحديدي إلى موضعه . ثبت يده على "الكلاكس" يفسح طريقه بين المتزاحمين أمام باب الجمرك ، ومضى في شارع النصر ..

قبل أن يميل إلى ميدان المنشية ، تذكر لحناً لأم كلثوم: يا مسافر على بحر النيل .. أنا ليه في مصر خليل .. أسكت الدندنة ، وقرر ألا يرفع يده عن "الكلاكس" قبل أن ينتهي زحام المنشية إلى طريق الكورنيش ..

– ٢ –

أنعشته نسائم الخريف ، فلزم جانب الكورنيش الأيمن، يفسح الطريق للسيارات المسرعة ..

لم تسعفه الذاكرة بأغنية قديمة ، فعاد إلى الدندنة بلحن أم كلثوم ..

قال وهو يتجه إلى داخل الدائرة الجمركية:

ــ لا تعتبر الهجرة تصرفاً نهائيًّا ..

وهو يطمئن على جواز السفر والتذكرة:

ــ سأحاول .. وإن كنت لا أعد ..

قال:

ــ مع أني أصغرك بعامين ، فإن أمنا لا تعترف إلا بك بديلاً للأب الراحل ..

وهو يضغط على ساعده بأصابع مترفقة:

ــ هذه فرصة لإثبات كفاءتك !..

نفض رأسه ، وأعاد التحديق في المرآة أمامه ، كأنما ليستوثق مما رأى: قائد السيارة التي تتبعه ، سكنت حركته في امتداد ساعديه ، وإمساكه بالمقود . الملامح الجامدة تذكره باللحظات التي لم تفارق ذاكرته: دفعت به أمه إلى السلم بيد أرعشها الفزع ، فخطف الدرجات . لم يرفع إصبعه عن جرس شقة الطبيب في الطابق الأول إلا حين أطل الرجل بوجه غاضب ، وإن ابتلع الكلمات عندما أخبره بما حدث ..

دس الطبيب السماعة داخل الحقيبة الجلدية ، صعد إلى فوق ، وهو يتبعه ..

بدت خطوات الرجل متمهلة . أطال الوقوف خلف النافذة المطلة على ميدان الساعة . دنا بجسده فتلامسا كأنما ليدفعه ..

غالب تردده:

ــ لقد غاب الوعي تمامًا !..

شمل الطبيب الجسد الساكن بنظرة متفحصة . فك أزرار القميص ، ورفع الفانلة ..

كان البطن قد تكور بصورة غريبة ، وبحلقت العينان، وتداخلت في شحوب الوجه زرقة قاتمة ..

مال بأذنه ، فتنصت على الصدر ، وضغط بإصبعين في البطن المنتفخ ، وقلب العينين ، وحدق فيهما . ثم لملم الثياب كيفما اتفق وسحب الملاءة ، فغطى الجسد كله ، وقال: انتهى !..

ذكره السائق وراءه بالصورة التي شاهد فيها أباه لما أعلن الطبيب وفاته . زاد من السرعة ، فغابت السيارة في انحناءات الكورنيش ..

-٣-

نهض لاستقباله ، فلم يفتش عن مقعد ، وظل واقفًا ..

سأل :

ــ سافر ؟!..

قال :

ــ نعم .. وأشكر لك عونك ..

ــ والسيارة ؟..

ــ أعدتها إلى الجراج ..

ــ هل طالبوا بتصريح ؟..

ــ نظر الضابط إلى السيارة ، فأذن بالدخول ..

ــ معاملاتنا كثيرة داخل الميناء ، كما تعرف ..

ــ أمي وأخواتي .. كلنا نشكرك !..

ــ هذا واجب .. لوالدك أفضال علينا !..

أغلق الباب وراءه . سار في الردهة الطويلة ، على جانبيها حجرات تضيق بالمكاتب وأصوات الآلات الكاتبة والحاسبة وأجهزة الكمبيوتر ..

قبل أن يميل إلى المدخل الخارجي ، توقف ــ بتلقائية ــ وأعاد النظر إلى الحارس الذي بدا ــ لفرط هموده ــ كأنه التصق بالمكان . راعته السحنة الغريبة الساكنة ، أعادت الحادثة القديمة ، لما أعلن الطبيب ــ في يأس ــ وفاة أبيه ..

اهتزت قدماه ، ومسح السكون والحجرتين المغلقتين من حوله . داخله خوف ، فزاد من خطواته ، حتى أنقذته حركة الطريق .

روى لأمه ما حدث: وداعه لأخيه حتى غادرت الباخرة الميناء ، حرصه ــ وهو يعيد السيارة ــ على شكر الرجل ، تذكر فروى خوفه من قائد السيارة ، وحارس المبنى ..

قالت الأم وهي تمسح ــ بعناية ــ بقعة في جانب الترابيزة:

ـــ جاء دورك لقيادة الأسرة ..

ـــ أنا أجيد المذاكرة فقط ..

أضافت بعصبية:

ـــ وقيادة السيارات ؟..

ـــ أقود سيارات الآخرين لأنفق على نفسي ..

ـــ مات والدك .. وأصر أخوك على الهجرة .. وها نحن .. قاطعها:

ـــ صح ما توقعته ..

شابت صوته حدة:

ـــ هل نرجئ الحديث ؟..

ثم بلهجة تغلفت بالإشفاق:

ـــ أقدر مشاعرك لسفر أخي ..

لمح الدمع في عينيها:

ـــ تحدث الرجل عن أفضال أبي !..

ما حدث مضى ككابوس ، وإن لم يبرح الذاكرة . عاد ــ في يومه الأخير ــ مهمومًا: فأثار قلقها . يغادر البيت ذات صباح ، يعود بعد عشرة أيام ، وربما بعد خمسة عشر يومًا . يفض الأوراق عن الهدايا التي أتى بها من العريش أو القاهرة أو الإسكندرية . يتنقل بين جمارك المدن الثلاث . قدم في رحلته الأخيرة من العريش . سألت عن ضخامة الهدايا ، فحدثها عن صفقة العمل . احتواه الصمت بعدها ، ولزم السرير فلم يغادره ، حتى فاجأته الأزمة في الليلة ذاتها ..

ــ أثنى الرجل على أفضال أبي .. فلماذا لا أقصده في وظيفته ؟..

ثنت إليه نظرة قلقة:

ــ ليتك تبتعد عن هؤلاء الناس .

ــ لكنهم أصدقاء أبي ؟..

ــ مات أبوك دون أن يشكو مرضًا !..

أخلى وجهه للدهشة:

ــ لا شأن لهم بموته !..

ـــ منذ عرفوا طريقهم إليه ، لم تفارقنا المتاعب .. ولعلهم وراء هجرة أخيك !..

أضافت ، وهي تغلق الباب وراءها:

ـــ ابتعد عن هؤلاء الناس !..

–٥–

كان قد اتخذ قراره . أثق في نياتكم . إذا كانت أفضال أبي خدمات ، فإني أعد بما فوق الطاقة . بوسعي أن أفعل ما كان أبي يفعله . دلوني على الطريق التي سار فيها ، فلا أخطئ معالمها ..

–٦–

استقبله زحام ميدان الساعة ..

قبل أن يعبر مزلقان الترام ، اجتذبته سحنة بائع الصحف على ناصية الميدان . عاود التحديق ، فرأى وجه أبيه لما أتاه الطبيب ..

أسرعت خطواته في غير اتجاه . انشغل حتى عن النظر إلى وجوه الناس من حوله . ارتمى داخل تاكسي لبى

إشارته . أغمض عينيه ، وأسند رأسه إلى الخلف . حاول السيطرة على لهاث أنفاسه ..

سأل السائق عن الاتجاه ، ففتح عينيه . اصطدمتا بالمرآة أمامه ..

هز رأسه ، وأعاد النظر ..

صرخ ..

الشرق الأوسط ١٩٨٧/١٢/٢٥

فلما صحونا

مع أني أذكر ساعة رؤيتي له للمرة الأولى: ظلال الغروب تعلو أسطح البنايات ، وتغيب عن الطريق ، فتضفي على الناس والأشياء غلالة رمادية ، تهدأ الأصوات بالظلمة التي حلت في الدكاكين ، وداخل البيوت . ترجئ الإضاءة ، فلا تغري الذباب بالدخول ..

مع ذلك ، فإن المكان الذي رأيته فيه غاب عن بالي، فلا أذكره على وجه التحديد . ربما الجدار الملاصق للباب الخلفي بمسجد سيدي علي تمراز ، أو الزقاق المفضي إلى شارع الميدان ، أو ناصية شارع الموازيني . صوته المتخاذل ، والحقيبة التي هدت حيلي ، وتعجلي العودة إلى البيت .. ذلك كله ، أنساني حتى الصورة التي رأيته فيها ، وإن كانت ــ بلا تفاصيل محددة ــ تدعو إلى الإشفاق ..

هل وضعت الحقيبة على الأرض ، وسألته عن حاله ، أو أنه هو الذي نادى ، فاتجهت نحوه:

ــ من الإسكندرية ؟

ــ لي أقارب فيها ..

ــ أصحبك إليهم ؟..

ـــ لا أعرف أين يقيمون ..

ـــ أشفق عليك من قدوم الليل .

هزني صمته المتحير ، فأردفت:

ـــ بيتنا قريب .. استرح قليلاً .. ثم تدبر الأمر !..

* * *

تبينت ـــ في بيتنا ـــ ملامحه . أهمل شعره ، فانسدل على جبينه حتى لامس الحاجبين . تناقضت نظراته الحادة مع خطواته المتمهلة ، والآهة التي رافقت جلوسه في "الأنتريه" المقابل لباب الشقة ..

دعوته إلى كوب شاي . تشاغلنا بالحديث عن نظرات أخوتي المتطلعة . حمادة الصغير آخر من انسحب إلى الغرفة القبلية المطلة على شارع إسماعيل صبري . ارتفع صوته وهو يخاطب قطع الزلط الصغيرة ، نظمها في صفوف متقابلة ، تأهبًا للمعركة التي يديرها ..

علا صوت المطر في الخارج . تقاطر رذاذه على نافذة المطبخ المغلقة ، ثم انهمرت القطرات . تناهى صوت

حمادة من الداخل: يا مطرة رخي رخي .. على قرعة بنت أختي ..

شرقنا وغربنا . حدثني عن ظروفه ، فحدثته عن ظروفنا . قلت ما أسعفني به الخاطر والذاكرة ، وإن تبينت ــ ربما بعد أيام ــ أنه كان مقترًا فيما روى ، بينما أطلقت لخاطري ما كان يفد إليه فيرويه ..

لاحظ دهشتي لأسئلته التي كأنها تعلم بأحوالنا جيدًا ..

ــ فلماذا تسأل عن مكان أقاربك ؟..

ــ لا أعرف أين يقيمون ..

ــ تحيرني !.. ألا تتابع أنباء الحي ؟..

ــ فقط أقاربي من هنا ..

* * *

في الصباح ، داخلني إشفاق لما رأيته ــ في المطبخ ــ يعد لنفسه كوبًا من الشاي . لم أناقش مغادرته مكانه في الأرض ، بين صفين من الأسرة ، في الغرفة المطلة على

سيدي علي تمراز ، بدا عفويًّا في تصرفاته ، فدعاني إلى مشاركته احتساء الشاي ..

مال إلى دورة المياه ، فاغتسل . لاحظت أنه طوى الفوطة بإحكام ــ عكس ما نفعل ــ قبل أن يعيدها إلى موضعها . واتجه إلى مقعد في مواجهة "البلكونة" المطلة على الميناء الشرقية ..

* * *

بدأ أخوتي في مغادرة الشقة ، فغلبني الحرج ..

كنا سبعة أخوة وعينا على الإقامة في الشقة المطلة ــ من ناحية ــ على سيدي علي تمراز ، ومن ناحية ثانية على الميناء الشرقية ، تسعنا ــ بالكاد ــ حجراتها التي تبلغ ثلاثًا . أهمل البعض ــ لظروفنا المادية ــ مواصلة الدراسة، فالتحقوا بوظائف صغيرة في الميناء الغربية ، أو لدى تجار في شارع الميدان وسوق النصر .

قال وهو يسند قدمه إلى المقعد المقابل:

ــ اذهب إلى عملك .. وسأغلق الباب ورائي ..

* * *

فكرت في قضاء اليوم أجازة . يصعب أن أتصوره في البيت بمفرده . لا أعرف عن ظروفه سوى ما حدثني به. مع ذلك ، فقد غادرت البيت . لم تتحول نظراتي عن بلكونة الشقة ، قبل أن أميل إلى شارع التتويج . تصورت ــ لا أدري لِمَ ــ أنه ربما يراقب خطواتي المبتعدة ..

عدت إلى البيت بعد ساعتين ، أو أقل . حاصرتني الظنون ، فلم أدرِ كيف أتحدث ، أو أجيب عن الأسئلة ، أو أرتب الأوراق ، وسقط كوب الشاي لارتعاشة يدي وأنا أتناوله ..

أدرت مفتاح الشقة ، يسبقني التخوف من سرقة الرجل لما في البيت ، قبل انصرافه ..

أطلقت ــ غصبًا عني ــ صيحة مفاجأة ، لما رأيته جالسًا على الكنبة ، في وسط الصالة يقرأ صحف الأيام الماضية ..

* * *

بهرنا بأفاعيل كأنها السحر وألاعيب الحواة . حاول حمادة تقليده . فأخفق . ولم نعد نلاعبه الشطرنج بعد أن تكررت ــ بسهولة ــ انتصاراته علينا ..

***

قال حمادة:

ــ أريد أن ألعب ..

قلت:

ــ ومن يمنعك ؟..

قال:

ــ هذا الرجل .. يبعدني إذا لعبت في الصالة .. ويأمرني بالصمت إذا لعبت في غرفتي ..

قلت:

ــ كلها أيام ، ويترك البيت !..

***

لم نعد نطيقه

غابت في تصرفاته نية الرحيل . غادر مكانه في الأرض بين الأسرة . لزم الكنبة المقابلة لباب الخروج . وحين يضع رأسه على الوسادة في منتصف الليل ، لا يقدم الموعد ولا يؤخره . لا يشغله أن نواصل سهرنا ، أو يحل التعب فننام . يناقش ويسأل . يغلبنا الحرج ــ أحيانًا ــ فنجيب عن أسئلته ، أو ينشغل بقراءة الصحف ، ومشاهدة التليفزيون حتى ينتصف الليل . يعدل الوسادة تحت رأسه ، ويسحب الغطاء ..

شخط في حمادة الصغير ــ ليلة ــ عندما طال لعبه في الصالة بقطع الزلط:

ــ كبرت على هذه الألعاب ..

أضاف فيما يشبه التحذير:

ــ انشغل بدروسك أفضل !..

صرخ حمادة:

ــ لا شأن لك ..

هوى على حمادة بصفعة ، فاجأته ، وفاجأتنا . اندفع حسام ـــــ بتلقائية ـــ ناحيته . أوقف اندفاعته ، وغلبنا الذهول لما ومضت المطواة التي أخرجها من ثيابه ..

انسحبنا إلى حجراتنا . حتى حمادة ترك قطع الزلط في أماكنها . دفعه الخوف إلى الحجرة التي تضمه وثلاثة من أخوتي ..

***

ــ متى يغادر البيت ؟..

أمضنا الألم عندما تماوجت الأعماق بالسؤال ، وتخاطبت به الأعين ، دون أن تتيح جلسته المستقرة فرصة لأن نجلس ونتحرك ، ننام ونصحو ، يشغل السؤال مساحة الشقة كلها ..

كنا في حالنا لا نختلط بالجيران إلا لضرورة . صباح الخير يا جاري ، أنت في حالك وأنا في حالي . حذرنا حسن لما جلس مع أصحابه في قهوة المطري المطلة على الكورنيش ، يوم تسلم راتبه للمرة الأولى . عاد إلى

مألوف عادته ، عادتنا . نعود من أعمالنا ومدارسنا ، فلا نغادر البيت إلى صباح اليوم التالي ..

مع ذلك ، لم تكن حياتنا تخلو من تحرشات الجيران أو سابلة الطريق ، وربما شتائمهم واعتداءاتهم . ندافع عن أنفسنا بالقدر الذي تتيحه لنا قوتنا . أفلحنا في رد اعتداءات الجيران أو المارة الذي طال أذاهم واحدًا من أخوتي . قلبنا ــ ذات يوم ــ عربة بطيخ دفع البائع أخي حمدي بمقدمتها ..

الأمر ــ هذه المرة ــ يختلف . بريق النصل الحاد يذوي الكلمات . لم نتحدث في أعمالنا ولا إلى الجيران أو سابلة الطريق ، عن الخوف الذي هد تفكيرنا فعجزنا عن التصرف . تكرر خروجنا والعودة في آلية صامتة . أجهدنا التفكير ، وإن عجزنا عن فعل شيء ..

جاوز الصمت الزاعق إلى مطالبات وشتائم . رفض حمادة إحضار كوب ماء من المطبخ ، فصفعه بلا تردد . أهملنا الأمر حتى حسام ظل في جلسته أمام التليفزيون ، كأنه لم يرَ شيئًا ..

* * *

أيقظنا الصراخ من نومنا . هرعنا إلي حيث الرجل . كان قد أمسك بذراعي حسام ، وراح يخبط رأسه في الحائط، وحسام يستغيث بأسمائنا ، واحدًا واحدًا . لم نعرف بواعث ما حدث ، ولا لماذا فعل الرجل ما فعل ، غير آبه بشتائم حمادة، وجذبه لبنطلون بيجامته بأصابعه الصغيرة ..

نظرت إلى أخوتي ونظروا إلي . غلبنا التخاذل والحيرة ، فلم نتكلم ، أو نفعل أي شيء ..

سعى حمدي إلى غرفته ، وصفق الباب ــ بشدة ــ وراءه . ترك الرجل ذراعي حسام ، فتهاوى إلى الأرض . دار الرجل حول نفسه . فواجه نظراتنا بهزة من ذقنه ، تأمرنا بالانصراف ..

عدنا إلى حجراتنا في تثاقل ، كأن أقدامنا التصقت بالأرض ، وإن شملتني انتعاشة لنسائم منعشة من خلال النافذة البحرية .

(إبداع يونيو ١٩٨٧)

العودة

أهمل متابعة المضيفة ، وهي تشرح خطوات الإنقاذ، تكرر الأمر في عشرات الرحلات بين القاهرة ومسقط ، فبدا المشهد رتيبًا . ناوشته أحداث الأيام الأخيرة ، فاطمأن إلى الحزام ، وأسند مؤخرة رأسه إلى المقعد ، وأغمض عينيه ، مستعيدًا كلمات سعيد منصور ، وهو يودعه على باب المطار:

ــ أعلم أنك حزين ..

ثم وهو يشد على يديه في مودة حقيقية:

ــ المغترب إذا استعد للعودة النهائية ، لابد أن يعتاد سماع تلك الكلمات التي عجزت عن فهمها !..

أضاف ضاحكًا:

ــ أنت الآن كجندي تناساه زملاؤه بعد فك خيمته !..

أنهى الإجراءات في آلية ، وإن حرص على سؤال شرطي الجوازات: هل تتيح لي تأشيرة المغادرة أن أعود إلى مسقط ؟.. قال الشرطي ، وهو يتأمل الختم الدائري:

ــ العودة من حقك بعد ستة أشهر ..

تنهد في ارتياح ، وتقدم إلى الباب المفضي للدائرة الجمركية . حين صارحه مصطفى قاسم ــ لمرأى الختم الذي شغل صفحة كاملة ، بخطورة الأمر ، تساءل في دهشة:

ــ وهل فعلت ما يستحق ؟..

قال:

ــ الكفيل يملك إيداعك بالسجن بلا سبب ..

التمع الغضب في بحلقة العينين ..

شمله مصطفى قاسم بنظرة إشفاق:

ــ جريمتك أنك ارتديت ثيابًا في مستعمرة للعراة ..

قال:

ــ يحاسب المرء على استقالته ؟!..

ـــ يرى أنك أربكت العمل بالاستقالة في موعد غير مناسب ..

ـــ وما الموعد المناسب ؟..

ـــ هو الذي يحدده !..

ـــ وتلك الكلمات الغريبة التي لا أستطيع فهمها ؟..

ـــ لا يتحدث عنها سواك !..

ـــ أنت تتحدث بها أحياناً ..

ـــ وهم !.. وأخشى أنك ضيعت كل شيء !..

***

تعرف إلى الكلمات ـــ للمرة الأولى ـــ عندما فاجأه ، في الغرفة الملاصقة ، حوار بين حسين أبي طالب ورشاد سليمان . لم تكن الكلمات تعبر عن لغة أو لهجة ، إنما هي حروف ألف سماعها ، وإن تناثرت وتداخلت ، فبدت ككلمات متقاطعة . أرجع إلى همس الكلمات ، صعوبة وصولها ـــ كاملة ـــ إليه . لكن الكلمات تكررت في أيام تالية ، ناوشته وشغلته ، بدت لغزًا يستعصى على الفهم وكان يغادر المكتب

بلا سبب حقيقي ، ينطلق بالسيارة إلى طريق المطار ، ربما طالت الرحلة إلى الرسيل أو فنجا: تذكر ــ ذات يوم ــ صديقًا يعمل بالتدريس في نزوى ، فواصل الرحلة ، لكنه فضل العودة ، قبل أن يصل إلى مشارف المدينة . لحقه نداء في شارع روى:

ــ الشمس لاهبة ، فأين تذهب ؟...

أبان له السؤال أنه غادر البيت ، دون أن يدرك ــ بالتحديد ــ مقصده . كانت الشمس في المنتصف تمامًا ، فخلا الشارع من الظلال والمارة ، فيما عدا هنديين افترشا مدخل بناية قريبة . قال في سرعة:

ــ مشوار !..

ــ وأين سيارتك ؟..

ــ فضلت أن أمشي ..

ــ ألا تخشى ضربة الشمس ؟..

هز كتفيه ، وواصل السير .

سأل رشاد سليمان عن معنى الكلمات ، فقال ببساطة:

ـــ لا غموض .. أعط للكلمات انتاهبك جيدًا !..

هتف:

ـــ لماذا يتغير الناس في الغربة ؟..

قال رشاد دون أن يزايل هدوءه:

ـــ لعل التغير في داخلك أنت ..

أضاف متسائلاً:

ـــ أين كانت ملاحظاتك من قبل ؟..

استعان بيديه في التعبير عن المشكلة كأنها حياته:

ـــ نحن نناقش الأمر إذا أصبح ظاهرة !..

***

حاصره الضيق ، فأحس بالاختناق . غادر الشقة التي كان اتساعها يقذف به في بئر الوحدة . مضى ـــ بلا هدف محدد ـــ إلى شارع روى ، حتى نهايته . لم يأبه بالحرارة اللاهبة أو الرطوبة التي أثقلت خطواته . قبالة مسجد قابوس تأكد من اللافتة ، وصعد البناية ذات الطابقين . كانت العيادة خالية إلا من الممرض الهندي يطالع مجلة

بالأوردية . أهمل الطبيب السماعة على المكتب ، وسأل في اهتمام:

ــ هل زرت آخرين ؟..

قال:

ــ هذه أول مرة ..

ــ مصري ؟

ــ نعم

ــ وأنا عراقي .. لي الآن عشر سنوات في مسقط ..

ــ أنا أقل منك بسنة واحدة ..

ــ أصبحت ــ مثلي ــ مواطناً عمانيًّا ..

قال في تردد:

ــ لولا هذه المشكلة التي اقتحمت حياتي ..

أعطاه الطبيب انتباهه . سأل واستوضح وناقش واعتذر عن كتابة روشتة ، أو تقاضي أتعاب:

ـــ إني أكلمك بالعربية ، وأنت تفهمني .. فأين المشكلة إذن ؟

***

حيره الأمر تمامًا ، فقرر تجاهله . تناسى الكلمات . أهمل سماعها ، أو تقصي دوافعها . اكتفى ـــ لسماعها ـــ بنظرات لا مبالية ، وشفتين تحرصان في مطهما على تأكيد معنى الرفض. المفاجأة أذهلته ، لما تخللت الكلمات حديث الكفيل عن التصدير والاستيراد ، والبضائع التي تنتظر تحريكًا في ميناء قابوس . تداخلت الكلمات في الحوار ، وتعاظمت ، فخلا الحديث مما يسهل فهمه . أخفق ـــ للغضب الذي أطل من عيني الكفيل ـــ في تنفيذ قرار اللامبالاة . حاول الفهم والاقتناع ، لكن الكلمات تراقصت أمامه في هستيرية واضحة . أحنى الرأس يأسًا ، فصرخ الرجل:

ـــ أنت لم تعد تصلح للعمل معي ..

كأنه نزع الغطاء من قمقم المارد:

ـــ إذن ، فاقبل استقالتي !..

***

كالهمس ، أو انعكاسات الأصوات في الأودية ، وقيعان الآبار ، تناهت الكلمات إلى أذنيه . هز رأسه غير مصدق ، ثم عاود التأكد . كان يقينه أن ما حدث في مسقط قد انتهى بإقلاع الطائرة ، لكن التلاغط حوله ، ذكره بمطار "السيب" وإن بدا الآن أكثر وضوحًا ، ونأيًا عن الفهم .

فاجأه ضابط الجوازات بتلك الكلمات المدغمة ، التي لا تنطوي على أي معنى ، ويصعب فهمها . ليست العربية ولا الإنجليزية ولا الفرنسية ، ولا هي مفردات لغة بذاتها . مع ذلك ، واصل الضابط الحديث ، ترافق كلماته تلويحات بأصبعه ، كأنه ينذر ، ولعله يهدد ..

قال:

ـــ لا أفهم !..

طق في عيني الضابط شرر ، وتعالت الكلمات ، وانفرجت الأصابع ، يلوح بها في غضب واضح ..

ثنى نظرات الاستغاثة إلى الواقف خلفه: شاب في حوالي الخامسة والعشرين ، ارتدى بالطو بياقة من الفرو ، فبدا مهرجًا في الحر القائظ . ربما قدم من الأردن أو

العراق، العاملون في الخليج يحرصون على الريكوردر والسامسونايت . أرخى جفنيه كأنه يتهيأ لنوم. المؤكد أنه استمع إلى الكلمات ، فقد استلفتت انتباه الواقفين في الصفوف المجاورة ، وإن لم تغادر الصفوف انتظامها ، وعاودت النظرات اتجاهها إلى النوافذ الزجاجية .. لكن الشاب ظل على هدوئه ، كأنه وعى الكلمات . أحس بالاختناق والمحاصرة ، فثبت نظرات اللامبالاة ، وربما الرفض ، على الضابط الذي كور جواز السفر في يده ، كأنه سيمزقه ، اختار الوقوف في نقطة الصفر ، لينهي الأمر على نحو ما ، تساوت لديه البداية والنهاية ، وردود الأفعال مهما تكن قاسية، أذهله أن الكلمات على شفتي الضابط ـــ ذوت بلا توقع . هدأت العاصفة بلا مناسبة ، وفرد جواز السفر أمامه، ثم ختمه ، ودفعه إليه من الخصاص الضيق ..

غادر الطابور كمذهول: ما معنى الذي يحدث ؟ هل هو حلم أو كابوس أو أن التعب أجهده ؟ لكن الحياة ـــ داخل المطار ـــ على الصورة التي ألفها من قبل: الناس هم الناس، اللافتات هي اللافتات ، نداءات الاستعلامات وإقرارات

العملة والسيور والأسواق الحرة والمتابعون لوصول الحقائب والحقائب المتخلفة والذين بلا عمل ..

بدا مغايرًا للمرات السابقة: مجموعة من السائحين ينتظرون حقائبهم . تأمل الاسم ورقم الرحلة ٥٧٦ تل أبيب . تل أبيب ؟!.

شمل المجموعة بنظرة جانبية . بدوا سعداء ، يتضاحكون ، وإن علت في أحاديثهم تلك المفردات التي عجز عن فهمها ..

عاد إلى قراره القديم ، فهز كتفيه ، واتجه إلى العربات الحديدية ، سبقه شاب يناهز العشرين ، سحب له عربة ، وشفتاه تلوكان الكلمات الغامضة المدغمة ، دفع العربة إلى موضع "السير" دون أن يتلفت إلى الشاب ، أو يناقشه في كلماته . كان القرار قد سيطر على تصرفاته ، فلا تعنيه تلك اللغة ، اللهجة ، الكلمات الغريبة المتناثرة ..

***

اطمأن إلى وقفته ، بحيث استند إلى العمود المواجه لسير الحقائب ، تنبه على لكزة في جنبه ، تبعتها الكلمات

المتناثرة الغامضة ، تجمع رد الفعل في صر أسنانه ، وتكور قبضته ، ثم آثر ــ بالإرهاق ــ أن يخلي مكانه للجسد الضخم الذي تشاغل ــ من بعد ــ بالمنادة على الآخرين .

***

طالبه مأمور الجمرك بالاسم والمهنة وجواز السفر ..

ــ من أين ؟..

ــ مسقط .

ــ آخر رحلاتك ؟..

ــ أعمل في مسقط لكنني دائم التردد على القاهرة ..

ــ تاجر شنطة إذن ؟..

لو أنه روى عن الباعث الحقيقي !.. كان يحجز تذكرة العودة في اليوم التالي لوصوله إلى مسقط . أتعس اللحظات حين يغادر التاكسي في مطار القاهرة ويخطو إلى باب الدخول . أسعد اللحظات حين يعلن المضيف عن التحليق في الأجواء المصرية . أدهشته الدمعة التي ذرفها ــ

بالرغم منه ـــ لما أطل على الناس ـــ وهو ينهى أوراقه ـــ من نافذة مرتفعة في مجمع التحرير . كان يحرص على قراءة الصحف ، يناقش القضايا البعيدة كأنه يحياها ، يسأل ويناقش ويقترح ويرفض ، يصلي الجمعة في مسجد أبي بكر الصديق الذي يرتاده المصريون ، يزور ويزار ويودع ويستقبل في مطار "السيب" ، يستوقفه اختلاف اللهجة والتصرفات والتكوين الجسدي ـــ كان يراهن على الطيف القادم في الظلام ـــ يهلل للشوارع والميادين والشواطئ والأبنية ، إذا طالعته في التليفزيون: المراكب الصغيرة في شاطئ الأنفوشي .. زحام شارع الغورية .. لعلها مئذنة الحسين .. من هذه الأشجار فهي الإسماعيلية .. بور سعيد تخلو من البمبوطية ، فهؤلاء إذن من السويس .. إنها مستودعات البترول في مدخل الزقازيق .. حل الصيف ، فجمهور أستاد القاهرة يرتدي القمصان ..

تعلو عبارات الضيق من ملاحظاته . يهز كتفيه ـــ أحيانا ـــ فلا يأبه ، أو يهمس كالمعتذر: لقد تذكرت !.

فاجأته الكلمات الغامضة ، حين شرع المأمور مطواته ، وبدأ في تقليب الحقيبتين . لم يكن أعد نفسه

للرحيل، فخلت الحقيبتان إلا من ثيابه .. لكن المأمور أفرغ حتى الكروت السياحية على الطاولة ، يفتش عن شيء بذاته. أصم أذنيه بإغماض العينين ، حتى انتبه على هتاف المأمور:

ــ مع السلامة !.

***

من داخل التاكسي ، ذكر للعسكري الاسم والجهة ، تشاغل بتأمل القاهرة من النافذة المفتوحة: علا صوت السائق بكلمات من نوع: حمدًا لله على السلامة .. العالم زحمة .. الحر اليوم زائد .. ثم تداخلت الكلمات ــ هي هي بالتأكيد ــ في قوله: أين روائح السفر ؟. زاد تشاغله بالتأمل ، فكادت جبهته تلامس زجاج النافذة المغلق . دانت الغلبة ــ فيما بعد ــ الكلمات القافزة ، تحاصره ، تستفزه ، تدفعه إلى امتصاص السكينة بإغماض العينين .. لكن البركان انبثق من الأعماق ، ثار وتلاطم وتصاعد ، فهتف كأنه يواجه الموت:

ــ اسكت !.

لمح البواب يفاصل زبونًا ، أمام الفاترينة الصغيرة في مدخل البيت . ناداه باسمه ، وأشار إلى الحقائب . تعمد أن يسبقه إلى مدخل البيت ، حتى لا يلاحقه ــ من يدري ؟ ــ بالكلمات المجهولة . كأنما الناس استبدلوا بما عرفوه من كلمات تلك المفردات المحيرة ، كأنه يخالط ناسًا وهميين . يحيا في غير الزمان ، يهذي ويعانق خيالات . لاحقه البواب بالكلمات التي ألفها ، وإن لم يفهمها . أهمل الالتفات ، وصعد السلالم عدوًا . أطال الوقوف لحظات أمام باب الشقة: هل تفاجئه أمه بهذه اللهجة ؟ فكيف يواجه الأمر ؟ ماذا سيكون عليه التصرف ؟..

قاوم التردد ، وضغط الجرس . لم يرفع أصبعه ، حتى انفتح الباب . بدت أمه شعثاء الشعر ، تقصد العرق من جبهتها . بيدها سكين ، فهي لابد قادمة من المطبخ .. اتجهت عيناه إلى شفتيها ، ترقبان الارتعاشة التي تسبق الكلمات .

ــ أنت !؟...

ارتمى في حضن أمه ، وأجهش بالبكاء .

(مجلة أكتوبر ــ أكتوبر ١٩٨٥)

تكوينات رمادية

مددت يدي بعفوية ، وأضأت النور . كنت قد صحوت على أذان الفجر يتناهى من المرسى أبي العباس ، أطلت التحديق في الظلام السادر ، أتبين الشبح الواقف وراء النافذة يتطلع إلى الطريق بدت المفاجأة في ملامح وجهه أقرب إلى الخوف ، وربما الفزع .

هلل بيديه ، فأطفأت النور:

قلت ، وأنا أزيح الغطاء عن جسدي:

ــ هل تنوي صلاة الفجر في المسجد ؟..

قال في همس منفعل:

ــ أي صلاة ؟!.. وهل يتيح لي الملاعين أن أصل إلى المسجد ؟.

فطنت لما يعنيه . حدثنا ــ أخوتي وأنا ــ عن متاعب ــ لا يدري بواعثها ــ بدأت إدارة الشركة تواجهه به، حين أعلن رغبته في التقاعد ، الخواجة ليفي (سافر فيما بعد ــ إلى إسرائيل ، ضمن الأفواج الأولى لليهود المصريين) أظهر قلقًا واضحًا . تمعن في وجه أبي ، كأنه يستوضح نواياه . قال وهو يتظاهر بترتيب الأوراق على مكتبه:

ــ أرى صحتك ممتازة .. فلماذا تتقاعد ؟..

سعل أبي ــ بالتذكر ــ وأسند راحة يده إلى صدره:

ــ هدني الربو .. ولابد أن أنفذ نصيحة الطبيب بالراحة التامة !..

ــ اكتف بالعمل معنا .. وأعدك بزيادة راتبك ..

ــ صدقني .. مطلبي الراحة وحدها !..

روى أبي ما حدث ، دون أن يشير إلى ملاحظة ما . لكنه ــ في الأيام التالية ــ حدثنا عن الأوراق التي اختفت

من مكتبه ، والبرود القاسي في معاملة الخواجة ليفي ومعاونيه ، واعتذار الصراف بالمرض حتى لا يتقاضى راتبه . علا الإيقاع وبدت التطورات مثيرة ، عندما فاجأنا أبي ــ ونحن حول الطبلية ننتظر عودته ــ بخطوات متعجلة، ووجه يكسوه قلق واضح . وضع الصحيفة وكيس البرتقال على المائدة ، وعاد إلى الباب يستوثق ــ أعلى السلم ــ مما رآه . لم أكن رأيت أبي في تلك الصورة من قبل . تنقل ــ بعينين مرتعشتي الأهداب ــ بين باب الشقة والنافذة المطلة على المنور ، ولوحة الكانفاه المعلقة في الجدار ، وحركة مفيدة ــ داخل المطبخ ــ تعد الطعام ، ونظراتنا القلقة . والقط السيامي الذي أقعى تحت الطبلية . غلب التوتر محاولته لعناق السكينة . جلس على الكنبة الاستامبولي . أطال التحديق في اللاشيء حوله . في اللحظة التالية ، تبدد السهوم ، فانتفض ووقف ، ودار حول نفسه ، وتحركت شفتاه بكلمات لم ينطق بها ..

أزاح له نافع وشاكر مكاناً بينهما ، فجلس ، أمسك بيديه طرف الطبلية ، كأنه يهم بقلبها:

ــ هل رأيتم ما رأيت ؟..

تطلعنا بأعين متسائلة:

ــ الخواجة ديفيد ــ مساعد ليفي ، يختبئ في بئر السلم !..

قلت في ضيق:

ــ ولماذا تتصور أنه يختبئ ؟... ربما يريدك في أمر ما ؟..

ــ أنت لا تفهم شيئًا .. منذ أيام أتابع تنفيذ المؤامرة ..

ــ ضد من ؟..

ــ ضد أبيك !..

أغضبه ــ وإن لم يعلن ــ تنهدة أخي نافع غير المصدقة .

استطرد وهو يهش ــ بعصبية ــ ذبابة حطت على أنفه:

ــ صدري مليئة بالأسرار .. وهم يخشون أن أذيعها ..

تغلف صوته بحشرجة قاسية:

ـ لقد قرروا قتلي !.

***

لزم أبي البيت ، بعد أن تسلم مكافأته . يكتفي بالتنقل بين غرفته والصالة ، ويشغل نفسه بمراجعة قواميس الإنجليزية والفرنسية ، ويدون جملاً وملاحظات ..

لمجرد الرغبة في قطع الصمت الذي كان يعمقه مضغ أفواهنا للطعام ، سألت أبي:

ـ تقاعدت عن مهنة الترجمة .. فلماذا تقسو على نفسك بالمذاكرة ؟

قال في استغراب:

ـ التقاعد لا يعني أن أهجر اللغة ..

وعلا صوته في تغير مفاجئ:

ـ إذا نسيت اللغة ، نسيت كل ما أعرفه من أسرار .. وهذا ما لن أمنحه لهم ؟..

وصرخ في نظرتي الداهشة:

ـــ أنت لا تفهم شيئًا .. لم تعد حياتي تهمني .. المهم أن أرد المؤامرة !..

***

تغيرت حياتنا. خطوات أبي الزاحفة بين غرفة النوم والصالة ، وتخوفه الواضح من رنين جرس الباب ، تطلعه القلق ـــ في لحظات مقاربة ـــ من خصاص النافذة ، شروده الساهم وحديثه المفاجئ إلى نفسه أحيانًا . لم يعد تشغله المذاكرة ، أو مشكلاتنا الشخصية ، تناسى حرصه ـــ منذ وفاة أمي ـــ بدس السندويتشات في حقائبنا كل صباح قبل أن نغادر البيت ، شاع حولنا ضباب غير مرئي ، وغلب التوتر على تصرفاتنا ، وقال نافع:

ـــ ينقصنا حفل زار لنعيد هذا البيت إلى سابق عهده !..

***

في تلك الليلة ، صحوت على حركة أبي خلف النافذة. أضأت النور ، وأزحت الغطاء عن جسدي . حاولت أن أهبط إلى الأرض برفق ، فلا يصحو أخوتي . أحس

بصدري خلف ساعده ، فقال في صوته الهامس ، يشير إلى المجهول من خصاص النافذة المغلقة:

ــ هذا الذي يقف تحت عامود النور .. إنه الخواجة ليفي نفسه !..

قلت ، وأنا أحدق في الرجل الغائب الملامح:

ــ هل البالطو الأصفر مما يرتديه الخواجة ليفي ؟!..

ــ أنت لا تفهم شيئًا .. إنهم يحسنون إخفاء أنفسهم .. لكن هذا الواقف هو الخواجة ليفي بعينه !..

أحسست ــ لخوف أبي ــ بإشفاق . بدا مهدودًا متحيرًا ولا يقوى على التصرف . ذلك الذي يقف تحت عامود النور كان ينتظر سيارة العمل . رأيته مرات من قبل، وأنا أطل ــ بعفوية ــ من النافذة ، لأرق يعقب تناهى الأذان من أبي العباس ، أو ابتهالات ما قبل الصلاة . لكن البريق الذي التمع في عيني أبي ، بما هو أكبر من الخوف ، كأنه يرى الموت ، جعل السؤال سخافة لا معنى لها . تضاءل العملاق القديم فتمنيت أن أحتضنه وأبكي .

غامت عيناي ، فدفعته برفق:

ــ حديثنا سيوقظ أخوتي ، نم أنت ، ولن أغادر مكاني حتى أطمئن إلى انصراف الرجل ..

***

أيقظني أبي لصوت يتصارع من نافذة المطبخ . قال: إنهم يتسلقون المواسير . وأصر أن يتقاضى محصل الكهرباء نقوده من شراعة الباب . وأعلن قلقه لما تأخر شاكر عن العودة من المدرسة . وزاد من تأكده ــ ليلاً ــ إلى إغلاق الباب والنوافذ بإحكام ..

ولمحته ــ يومًا ــ يقلب في حقيبة نافع . أعاد الحقيبة إلى موضعها ، وهمس كالمعتذر:

ــ لابد أن أحتاط !.

***

لما صحوت ، كانت الشمس قد ملأت الدنيا . هدني النقاش مع أبي ، فنمت . كان أخوتي قد انصرفوا إلى مدارسهم ، وران على الشقة هدوء . اتجهت ــ بتلقائية ــ إلى غرفة أبي ..

كان مكورًا ــ في الأرض ــ على جنبه ، وعيناه مبحلقتان في سكون جامد ، غريب .

(إبداع ــ فبراير ١٩٨٦)

لماذا سكت "محمد جعلص" في حارة اليهود ؟!

د. أشرف الصباغ

منذ بداياته ظل الكاتب محمد جبريل محافظًا على تلك المسافة الشائكة بين الروائي في العالم الثالث وبين مجمل المدارس والنزعات الفنية الواردة من الخارج بغض النظر عما إذا كنا معها أو ضدها ، أو حتى ننظر إليها ونتعامل معها بطرق مختلفة ما زالت محل نزعات عديدة . ومنذ بداياته عكف على تأصيل ليس التراث أو الموروث ، وإنما

على إدارة عملية تفاعل مع التراث والموروث وبينهما في آن واحد من خلال النظر إليهما بنظرة شعبية طازجة وحية من دون إعلائهما واللجوء إليهما كطوق إنقاذ ، أو الاستعلاء عليهما من منظور أنهما ميراث ذل وتخلف وقهر .. إلى جانب ذلك قطع جبريل خطوات واسعة في إدارة تلك العملية ليس من منظور كوني وعام وإنساني كما يحلو لنا أن نقول عندما نريد أن نميز أحد كتابنا ، وإنما من منظور محلي صرف ، أي أنه يدير عملية التفاعل تلك منطلقًا من منظومة تفكير شعبية / مصرية ترتكز بدرجات كثيرة إلى اللغة بشكل عام ، حيث أمكنه في كل أعماله تقريبًا وبمستويات مختلفة أن يضفر الموضوع التراثي ــ إذا جاز التعبير ــ مع نفس لغة عصر الموضوع ، وفي ذات الوقت يستخدم اللغة الحية / الشعبية الآنية المنعكسة أو الممتدة من قلب اللغة القديمة ــ لغة الموضوع في عصره . وبالتالي فإذا كان محمد جبريل قد عكف على تلك المعادلة الصعبة ، فهو بذلك قد تولى مسئولية مشروع روائي ضخم ربما تكون أحد أهم نتائجه الهائلة قد ظهرت في "رباعية بحري" ذلك العمل الذي يحتاج لسنوات طويلة من أجل إخراج مفرداته الروائية التي تفوق

في حجمها مشروعات كثيرة مشابهة على المستوى المحلي والعالمي في آن واحد . وربما تكون هذه الملامح في مجملها هي التي جعلت محمد جبريل يشق طريقًا آخر مختلفًا عن كتاب ما يطلق عليهم "جيل الستينيات" ، ويحافظ في الوقت نفسه على تلك المسافة التي ذكرناها آنفًا.

وإذا كانت هذه المقدمة السريعة تلقى بعض الضوء على عالم محمد جبريل الروائي ، فإننا بصدد تناول عمل منفرد للكاتب ، وهو قصة "حارة اليهود": إحدى قصصه القصيرة التي تمتلك خصوصية شديدة ، ولعلها من أهم قصصه ، وواحدة من القصص القصيرة العربية التي تعرضت لموضوع ما يسمى بالمسألة اليهودية . و "حارة اليهود" ليست القصة الأولى التي تتناول هذا الموضوع الشائك الذي يبدو من النظرة الأولى مفصولاً فيه ومفهومًا ، ورغم ذلك فهو موضوع متشابك بسبب ارتباطه بعوامل كثيرة ومد وجذر خاضعة كلها لحركة العالم وليس لرغبتنا ــ نحن ــ فقط !!

لقد تناول محمد جبريل في قصص كثيرة "المسألة اليهودية" بالتلميح أحيانًا ، وبالتصريح في أحيان أخرى بداية

من قصة "نبوءة عراف مجنون" من أوراق أبي الطيب المتنبي" مرورًا بقصص "تكوينات رمادية" و "العودة" و "حدث استثنائي في أيام الأنفوشي" و "حكايات وهوامش من حياة المبتلى" و "المستحيل" و "فلما صحونا" و "أحمس يلقي السلاح" و "حكايات فات أوان روايتها" . في هذه القصص جميعًا نجد "المسألة اليهودية" مرتبطة بالكيان الإسرائيلي وتغلغل النفوذ الصهيوني بدرجات ما في ظروف ومراحل ومجالات مختلفة ، وذلك بالطبع نتيجة للصراع العربي – الإسرائيلي من ناحية ، ومن ناحية أخرى نتيجة للمرارة التي تجرعها العرب على مر التاريخ من وجود تلك "الجيوب" الهلامية التي كانت تعيش في كتل منعزلة إلى أن وجدت الفرصة لتنسلخ تمامًا وتعمل بشكل عقلاني منظم ضد المجتمعات التي كانت تعيش فيها ، وفي ذات الوقت في اتساق كامل مع قوانينها الداخلية التي تشكل قيمها الروحية ودستورها السياسي ومنظومة تفكيرها ونظرتها إلى العالم . ولكن الكاتب في قصته "حارة اليهود" يضع لمساته الأخيرة على عناصر تلك القضية ليجعل منها الموضوع الأساسي لقصة قائمة بذاتها:

حكاية ربما حدثت في الواقع كما تخبرنا الفقرة الأخيرة في القصة / السرد ، وربما لم تحدث بالضبط بذلك الشكل الذي جاءت عليه القصة !! لأن البداية التي تأخرت كثيرًا ، ورأى الكاتب أن يجعلها في جزء مستقل بذاته كـــ"حاشية" هي التي تجمل أهمية هذه القصة وتجعلها تقف بمفردها بين سيل هائل من قصص قصيرة مست موضوع "المسألة اليهودية" بطرق مختلفة ولكنها لم تجعل تلك المسألة محورها الأساسي .

يبدأ جبريل قصته ــ أو ينهيها بمباشرة فنية عالية: "الثابت تاريخيًّا ــ أن محمد جعلص مات في أواخر العشرينيات . دخل في قدمه مسمار ، وهو يسير ــ حافيًا ــ داخل بيته . أشار الطبيب الشهير علي باشا إبراهيم بضرورة بتر الساق ، حتى لا تلتهم الغرغرينا الجسد كله . رفض محمد جعلص أن يحيا بجسد ناقص ". هذه الفقرة تمثل مدخلاً ملحميًّا لرواية ملحمية أو تاريخية ، ومن ناحية أخرى تلقي بأحجار صغيرة في المياه الراكدة ، فتصنع أمواجًا دائرية لا تلبث أن تتسع وتنتشر ، ونكتشف أن الاتساع والانتشار يحدثان هنا في الذاكرة: ذاكرة القارئ التي تستدعي العديد

من الوقائع التاريخية ـــ الواقعية ، والتداعيات النفسية المتولدة من عملية السرد الفني . ومع القراءة المتأنية / التأملية نجد أن تصورات الأبطال تأتي ليس على لسان الكاتب أو من خلال عملية سرد مباشرة ، وإنما عن طريق لعبة فنية ـــ ربما تكون كلاسيكية ـــ حيث السرد هنا هو سرد الأبطال الذي يقوم به الكاتب ويتم عن طريقه هو ، بمعنى أن السرد يتم هنا بطريقة ومستوى وعي الشخصية ونظراتها للعالم وللأحداث ، وبأسلوبها وطريقتها أيضًا في التعامل والسلوك .

كان من الممكن أن تأتي الحاشية في البداية ، وبالتالي تظهر أمامنا ككلمة افتتاحية ـــ خطابية مباشرة ، وهذا مسموح به وموجود حين يود الكاتب أن يتحدث ـــ بمراوغة ـــ مع قارئه . فهو يلقى له بمقطع يلخص له القصة كلها ، وعلى القارئ إما أن يكتفي بما ألقى إليه ، ويترك القصة محتفظًا لنفسه بالعنوان وبما تجود عليه به الذاكرة من تداعيات ، وإما أن يراوغ ـــ هو الآخر ـــ الكاتب ويتسلل حثيثًا إلى الأحداث التالية . ولكن جبريل ألقى بالمفاجأة ـــ المقطع الأخير من القصة في النهاية ليدفع بالقارئ ليس إلى

إعادة قراءة القصة مرة أخرى ، وبالذات التاريخ المرتبط بمحور هذه القضية ، وتحديدًا في العشرينيات ، أو ما قبلها بعشر أو عشرين عامًا ، أو بعدها أيضا بعشرين أو بأربعين عامًا ، أو الآن ! وإعادة قراءة التاريخ هنا لا تمت بأية صلة إلى المصطلح الابتزازي الذي يسمى بـــ"معاداة السامية" وليست لها علاقة إطلاقا بـــ"المسألة اليهودية" من المنظور الغربي ، وإنما تنطوي على نظرة كلية شاملة بالمعنى الإنساني إلى "الجيوب" الموجودة في المجتمعات البشرية ، والتي تشكل خطورة شديدة على تماسك هذه المجتمعات وترابطها .

***

تدخل الشخصية الرئيسة مباشرة إلى قلب الحدث / المكان "حارة اليهود:" مضى في قلب حارة اليهود ، تميزه قامة أميل إلى القصر ، والامتلاء ، ورأس مهوش الفودين وشعر كثيف يفز من فتحة الجلابية ، أعلى الصدر ، بادي الصحة بما يلفت النظر" تبدأ القصة بفعل حاد (مضى) مثل النصل، رغم الامتلاء ، في قلب حارة اليهود . الكاتب يقدم شخصية بدون اسم ، ولكن من ملامحها يمكن تخمين أنها

شخصية بسيطة .. عربجي .. فتوة .. بائع متجول .. إلخ ولكنه يبرر حدة الفعل (مضى) عندما يذكر حارة اليهود ، لنكتشف في الحال أن الحارة ليست مكانًا بقدر ما هي جسد حي مستقل ، ومميز عما حوله ، إنها ببساطة شديدة "جيتو" يصعب الدخول إليه ، وبالتالي فليس هناك طريقة أخرى للولوج فيه سوى بـــ(المضي) . إذا كان الإنسان يعيش في المكان فمن الممكن أن يتم الدخول إلى أجزاء منه أو إلى زوايا فيه ، ولكن "الجيتو" بكل ما ينطوي عليه من مفاهيم روحية ونفسية وفكرية أكثر منها مكانية / إحداثية يتطلب استعدادًا مسبقًا للدخول إليه ، في حاجة إلى مسوغات وأسباب حتى يتوتر الجسد الذي ينوي الدخول والتوغل في هذا العالم الذي يفضل العزلة والتمايز والاستقلالية ، إلى ذلك الكيان الذي يعذب نفسه ، ويعذب الآخرين بإحساسه العميق بالدونية ، شعوره بالكراهية والبغض ، الأمر الذي يدفعه في نهاية الأمر إلى احتقار الآخرين وكراهيتهم ، ومن هنا استفزازهم .

يستمر الراوي في رصده لهذا الجسد "الماضي" في قلب "حارة اليهود" / الكيان: يعرفه المارة والجالسون فهم

يتقونه بإلقاء السلام ، أو بالدعوة للضيافة ، أو بعدم الالتفات. إلى هذا الحد يعادي الراوي تلك الشخصية ؟! هل هذه الشخصية منفرة إلى تلك الدرجة التي يحاول فيها الجميع اتقاء شرها وجبروتها ؟! الراوي لا يذكر اسم الشخصية (الجميع يعرفونها ولكن لا يهم إذا كان القارئ يعرفها أم لا)، وإنما يمعن في تكثيف ملامحها . بدءًا بصفاتها الخارجية ، ثم عن طريق الحواس حيث تتداخل مستويات السرد: "ثمة روائح غريبة ، نفاذة ــ وإن ألفها ــ تأتي من داخل البيوت ، ونجمة داوود متداخلة في الأبواب والشرفات" هل هذه الكلمات للراوي ، أو للشخص "الماضي" في قلب حارة اليهود، ولكنها تسرد على لسان الراوي ؟ هل هذه الشخصية تنتمي إلى المكان كإحداثيات ، أو تنتمي إليه ككيان ؟ إن حاسة الشم لدى الراوي مثلها لدى الشخصية ، وحاسة البصر لدى الاثنين تميز "نجمة داوود متداخلة في الأبواب والشرفات".

والروائح الغريبة غير محددة وإن كانت تعلن عن نفسها . ومع ذلك فالتعامل (تعامل الراوي والشخصية) معها يتم بحيادية شديدة ، فهي "غريبة" فقط غير مقززة أو عطنه ،

أو مثير للتقزز مثلاً. هل لأن الشخصية الماضية في قلب حارة اليهود جزء من المكان كإحداثيات ، أم جزء منه ككيان؟ إن الرائحة "غريبة" فحسب مثل هذه الطريقة التي يعيشون بها ، ويمعنون في ممارستها من أجل التمايز والاستقلال اللذين ربما ـــ وحتمًا ـــ سيقودان إلى الصدام مع الآخرين: الغرباء بالنسبة لهم . عندئذ يشرع الراوي في عملية فصل تشكل مستوى أسلوبي آخر ، أو بالأحرى تحديد علاقة الشخصية بالمكان (إحداثيات أم كيان؟) عن طريق مستوى سردي مغاير لما سبق .. لو أن هؤلاء الجالسين في الدكاكين ، الواقفين على النواصي ، المطلين من النوافذ ، تحرشوا به شاكلوه مثلما فعلوا مع علي الصغير . ينهي المسألة بمفرده . يطيح فيهم بيديه . يفش الغل الذي يخنقه منذ سنوات . ليست المسألة في مشاكلة علي وإيذائه . يستطيع الوصول إلى الفاعلين . يترك لأصدقائه أمر تأديبهم ، فلا يعودون إلى أذية الناس أو يتركون الحي بلا عودة ، الثأر شخصي ، لا يقف عند فرد أو أفراد . يمتد إلى حارة اليهود كلها ، ناسها وبيوتها ودكاكينها ومعاملاتها . إن فعل (مضى) الذي تبدأ به القصة يجد هنا تبريره القوي ، كما أن حدته

التي تنعكس بصورة ما على توتر الجسد ناتجة من أحداث سابقة . البطل يتمنى لو تحرشوا به ، شاكلوه مثلما فعلوا مع علي .. "ولكن" ليست المسألة في مشاكلة علي وإيذائه ... إنها أقدم من ذلك ، بل وربما أشد وقعًا وإيذاءً من مشاكلة الولد . هنا يتجه الراوي ليسرد ما يريد أن يقوله البطل ، أو يدور في نفسه وفي ذهنه من أفكار . ويتجلى السرد هنا في مجموعة من العلاقات الهامة: " أفلسوه في يوم وليلة ، مهدوا لذلك سنوات ، بالقروض والشيكات المؤجلة والبضائع الأمانة، ثم هطلوا كالسيل دفعة واحدة . أصبح دكان المصوغات والمجوهرات ملكًا لمن دفع السعر الأعلى ..." السرد يكشف عن هوية البطل ، يحدد موقعه من المكان ، ويعلن عن الأسباب والدوافع الكامنة لديه ، في نفس الوقت الذي يبقى فيه اسمه غير معلن . البطل ينتمي إحداثيًّا ــ فقط ــ إلى حارة اليهود ، أما الأسباب والدوافع الطبيعية جدًّا فهي السبب في عدم حدوث العكس ، أي انتماء البطل الروحي والفكري ــ ككيان ــ إلى حارة اليهود غير موجود . ويتكشف جانب آخر من شخصية البطل: يفش الغل الذي يخنقه منذ سنوات .. الثأر الشخصي ، لا يقف عند فرد أو

أفراد . يمتد إلى حارة اليهود كلها ، ناسها وبيوتها ودكاكينها ومعاملاتها . هل فعلاً الثأر شخصي نتيجة لمشاكلة الولد ، أو أن هناك غلاً منذ سنوات ليس بسبب إفلاسه ، وإنما بسبب أنهم هم بالذات الذين أفلسوه ؟ البطل نفسه لم يحسم الأمر ، بداخله العديد من التناقضات المرتبطة بدرجة وعيه وباكتمال هويته الفكرية وبتحديد الأولويات ، وهذا أمر طبيعي لدى شخصية عادية ، الأمر الذي يعطيها حيوية يجعلها تتحرك وتفكر وتقارن وتبحث ، وربما هذا هو عدم تحديد اسمها حتى الآن .

الكاتب يلجأ في هذا الجزء إلى ما يسمى بـــ "القرينة الثقافية" معتمدًا على المخزون الثقافي / الحياتي للقارئ ففي المقطع الأول توجد "حارة اليهود" ، والروائح الغريبة ، ونجمة داود على الأبواب والشرفات . وبعد ذلك مشاكلة الولد ، والغل الذي يخنقه منذ سنوات ، ثم الإعلان عن إفلاسه . كل ذلك حدث ليس بسبب شخص واحد يمكن تصفية الحساب معه ، وإنما بسببهم ومنهم جميعًا ، من الذين مهدوا لذلك سنوات ... ثم هطلوا كالسيل دفعة واحدة .." إذن فماذا يمكن أن يحدث لتاجر مصوغات ومجوهرات من

خارج "الجيتو" وإن كان حتى يعيش في نفس المكان ؟ إنه ببساطة يفلس "في يوم وليلة" ! بل و"يسرع في خطواته" خجلاً إذا ما مر أمام دكانه السابق "حتى أنه يتمنى الموت" بدلاً عن القهر ، إنه غريب وبالتالي كان يجب أن يفلس لأن "القرينة الثقافية" هنا تعيدنا إلى الوراء ، تنشط الذاكرة وتكشف عن مدى تغلغل تعاليم "الجيتو" المكتوبة والموروثة والمتغلغلة في أرواحهم.

يستطرد الراوي: "لما جاء الولد علي يبكي الإهانة ، قرر أن يصفي الحساب كله"، ثم ينتقل إلى مستوى آخر ، إلى سرد البطل نفسه: "يكون الدرس في حجم التأثير المطلوب . يعرف اليهود أنهم يسكنون الحارة ، ولا يملكونها. من حق الناس أن يمشوا في الشوارع ، والأزقة ، دون خوف أذى .." إن هذه الكلمات هي كلمات البطل نفسه ، فهل حقًّا إهانة علي هي التي يمكنها أن تدفع البطل "بادي الصحة" إلى أن يجعل الدرس بحجم التأثير المطلوب ، وحقًّا هي التي يمكنها أن تؤدي إلى تصفية الحساب كله؟ إذن فمن هو علي هذا ؟ لقد أفلسوه فباع دكانه في المزاد، واحتمل مرارة المرور أمام دكانه السابق ، وظل يتمنى الموت بعد

ضياع كل شيء ، ومع ذلك لم يتخذ أية خطوات انتقامية، أو حتى أي رد فعل واحد يكشف عن رأيه فيما حدث ، إلا أن إهانة الولد علي هي القشة التي قصمت ظهر البعير . وتبدأ أولى خطوات الوعي الحقيقي لدى البطل ، أولى تحدي هويته حين يتساءل: "هل ضربوا عليًّا الصغير في خناقة بين أطفال أو أنهم كانوا يعرفون أن الولد ابنه ..؟" إن عليًّا ببساطة شديدة غبن الشخصية الرئيسة / البطل الذي أفلس فباع دكانه لمن دفع أكثر ...

إذا نظرنا إلى الترتيب الوارد في القصة بخصوص مصائب البطل سنجدها مرتبة ومنظومة تبعًا لجملة قرآنية واحدة ـــ "المال والبنون زينة الحياة الدنيا" . البطل يقف على أرضية تراثية دينية تتعامل مع مفردات قرآنية هي انعكاس حقيقي وواقعي للعلاقات الإنسانية على مر التاريخ . "المال والبنون زينة الحياة الدنيا" لمجتمع ذي نسق ذهني معين ، مجتمع يسير بآليات خاصة مرتبطة بمدى وعي أفراده على الرغم من أن هناك أشياء كثيرة أخرى تمثل أهمية قصوى في الحياة ، ولكن وعي البطل متوقف عند هذا الحد ، إنه وعي محدود يكشف عن نفسه من خلال عملية السرد ،

ويتكون أيضا من خلال الأحداث: داخل القصة وخارجها أيضا ، في الحياة.

.. هل ضربوا عليًّا الصغير في خناقة بين أطفال ، أم أنهم كانوا يعرفون أن الولد ابنه . سأله عن الأولاد: هل هم أصحابه ؟.. وهل يعرفون من هو ؟.. وهل تحرش بهم ، أو ضربوه بلا سبب ؟..- تساؤلات كثيرة تفصح عن مدى بساطة الشخصية (وكذلك عن عمق تفكيرها وترويها) ، ومسالمتها ، وتكشف أيضًا عن عدم وجود أي إصرار مسبق وعمدي في مواجهة حارة اليهود . فالأولاد جميعًا يمكن أن يكونوا أصحابًا ، يلعبون معًا ، ويتشاكلون أيضًا ، بل ويمكن أن يتحرش بهم علي الصغير فيصير مخطئًا وبالتالي يستحق العقاب. إن جميع التساؤلات تمهد لظهور شخصية هامة . رغم ورودها في حالة تنكير ، وبشكل عابر تمامًا . وأهميتها تكمن هنا في أنها تعتبر مسوغًا فنيًّا / دلاليًّا على تطور وعي البطل . الأطفال عادة ما يخلطون ، أو تتشابك لديهم الأمور، وأحيانًا يكذبون بدون وعي لمعالجة بعض المآزق الطفولية التي يتصورون أنها غير هامة أو خطيرة . إذن فمن الذي يمكنه أن يصدق ولو حتى نظريًّا على كلام علي الصغير ؟

إنه "موظف بدار سك النقود ، صرخ في الأولاد ، فابتلعتهم البيوت والحواري الجانبية ". لقد وجد الطفل نفسه وسطهم "أحكموا حصاره في حارة خميس العدس ، وانهالوا عليه بالضرب القاسي ، المتواصل ، بالأيدي والأقدام والعصي الصغيرة" ورغم ذلك لم يصدق الأب تمامًا إلا حين أكد الموظف ــ لما سأله جعلص ــ كل ما قاله الولد علي .. في تلك العبارة البسيطة المقتضبة تزول الحالة الضبابية من وعي البطل ، تنحل شفرة التساؤلات الشكوكية حين يؤكد موظف ــ مجرد شخص غير معروف ــ بدار سك النقود على كلام الصغير ، عندئذ ، وعندئذ فقط ، يظهر لقب البطل ــ جعلص . إنه ــ فقط ــ جعلص وليس العسال كما سيأتي بعد ذلك . لأن هناك شروطًا عديدة أخرى ، ومهامًا كثيرة ضرورية لهذه الشخصية كي تمتلك اسمها كاملاً: هويتها ، وملامح وجودها الفعلي .

في أول حوار بالقصة تتكرر أسئلة محمد جعلص لمأمور القسم:

غالب الدهشة: كيف ؟

....

ــ ربما لم يعرفوا من أنت ؟

....

ــ لعل الوسخ ألقي عفوًا ، أو خطأً ؟

إنه نفس منطلق الأسئلة السابقة: هل ضربوا عليًّا الصغير في خناقة بين أطفال ، أو أنهم .. وهل .. جميع تلك الأسئلة لا تنطوي على نية أوقصد الاستفهام بقدر ما تحمل في طياتها رغبة عارمة في إزالة الشك وإبعاد الهالة الضبابية التي تعمي وعي البطل ، وهي الرغبة أيضًا في تأكيد الفعل الذي قام به الأولاد من ناحية ، ومن ناحية أخرى تأكيد ما قام به الكبار حين ألقوا الوسخ على مأمور القسم ــ ممثل القانون!

هنا تتجمع خيوط وعي البطل ، وتتكشف له مجموعة من العلاقات التي كانت ملتبسة عليه في السابق: " يتركوا الحي بلا رجعة".. يعرف اليهود أنهم يسكنون الحارة ، ولا يملكونها . لقد كان جعلص يتصور ، أو يتوهم ، أن اليهود بتركهم الحس سوف يتخلصون من منظومة تفكيرهم "الجيتوية" ، وكان يظنهم يعرفون أنهم يسكنون الحارة ولا

يملكونها ، لم يكن يتصور أنهم فعلاً يملكون الحارة ! ومقدراتها ! وأرواح الغرباء القاطنين فيها من غير اليهود !!

هناك أقليات كثيرة في كل مجتمعات العالم ، وفي مصر ، ولكن الأقليات (نطلق عليهم هنا أقليات تماشيًا فقط مع المصطلح السائد رغم عدم اتفاقنا إطلاقًا معه وذلك إلى حين استحداث مصطلح آخر يتعامل مع هذه العملية بشكل إنساني من حيث عدم التفريق في الحقوق والواجبات ..إلخ) دينية كانت أو إثنية في مصر ، وفي مصر بالذات ، لم تكن غريبة أبدًا عن نسيج المجتمع المصري ، بل مع مرور الزمن صارت تشكل نسيجه العام ، لأنها في الأصل جزء من هذا النسيج المتجانس ومن عصاب المجتمع ذاته . وهذه الجزئية الهامة تناولها إدوار الخراط عندما أكد ، في ملاحظة له على كتاب "شخصية مصر" لجمال حمدان ، على عدم وجود أية ثنائية في المجتمع المصري ، وبالتالي لا توجد أية ثنائيات أخرى لا دينية ولا إثنية ، ولا أي شيء آخر سوى شعب واحد يتفاعل ويتطور بتجانس مذهل . ولكن اليهود بالذات ، وانطلاقًا من مفاهيم التوراة والبروتوكولات التي وضعت الأسس الأولى لمنظومة الأفكار "الجيتوية" ، وفي كل

أنحاء العالم ، يتصورون أن ما تمسه أيديهم هو ملك لهم، وكل ما يمكن الحصول عليه هو ملك لهم ، وكل ما يمكنه أن يرد حتى في الأساطير والحكايات هو ملك لهم ، وبالتالي فالبطل هنا يطلب التصرف: "– هل تأذن لي في التصرف ؟" ولكن بأي شكل يمكنه أن يتصرف ؟!.. يتركون الحي بلا رجعة ؟ أو أن تحل المشكلة على غرار ما يحدث في الحواري الشعبية: عراك ، ومشاحنات ، وتأديب ، ثم عتاب وصلح ؟ البطل يطلب من ممثل القانون أن يسمح له بالتصرف ، وفي نفس الوقت لا يستطيع المأمور ــ ممثل القانون ــ أن يتصرف بنفسه ، وحسب القانون: "أنا موظف رسمي ــ أحتاج إلى التدقيق والإثبات ومراعاة الحساسيات.."، رغم هذه التصرفات والسلوكيات ، هناك قانون يسير على الجميع ، قانون يحافظ للجيتو على علاقاته مع الغرباء من حوله ، ويحمي سكانه حتى إذا تعدوا على ممثلي القانون ذاتهم .إن هؤلاء البشر يتصرفون وهم على وعي تام بأن هناك قانوناً يحميهم . ولكن ما معنى "مراعاة الحساسيات"؟ أية حساسيات ؟ ومن جانب من ؟ إن المأمور يقرن حاجته إلى التدقيق والإثبات بمراعاة الحساسيات . إذن

فممثل القانون قد واجه أحداثًا سابقة ربما نتجت عنها حساسيات ، أو ولدت حساسيات من نوع معين ولابد من مراعاتها ، ولكنها ــ على ما يبدو ــ ليست من جانب الغرباء ! الذين يعيشون في الحارة من غير اليهود .

عندما طلب البطل إذن ممثل القانون في التصرف ، لم يرفض الرجل: "أنا موظف رسمي .. أحتاج إلى التدقيق والإثبات ومراعاة الحساسيات .. أما أنت .."..

هنا نتوقف قليلاً لأن هذه القصة نشرت لأول مرة في العدد (٤٣٨) من مجلة "العربي" لشهر مايو ١٩٩٥م ، وتم حذف جملة غاية في الأهمية والخطورة في نهاية حوار محمد جعلص وصبحي أفندي منصور مأمور القسم (ناهيك عن حذف فقرة أخرى كاملة بعد انتهاء الحوار) . ففي حين ينتهي الحوار في مجلة "العربي" بجملة "..أحتاج إلى التدقيق والإثبات ومراعاة الحساسيات .. أما أنت .."، نجده ينتهي ــ بدون حذف ــ في نفس القصة بمجموعة جبريل "انفراجة الباب" الصادرة عام ١٩٩٧م عن الهيئة المصرية للكتاب على النحو التالي:

ـ أنا موظف رسمي .. أحتاج إلى التدقيق والإثبات ومراعاة الحساسيات .. أما أنت ..

وعلا صوته:

ـ تصرف يا جعلص !..

وبالطبع فالجملة من فرط خطورتها وتأثيرها على توجه القصة بكاملها تشكل ـ بالدرجة الأولى ـ مستوى فكريًّا هامًا وانعطافة كلية لمجرى القصة ، ولذا نفضل هنا التعامل مع النص المنشور في المجموعة القصصية والتغاضي التام عما جاء في مجلة "العربي" لأنه يعتبر نصًا آخر تمامًا وإن كان ينتمي حتى إلى نفس الكتاب . وقبل أن ننهي هذه النقطة الهامة نود توجيه الانتباه إلى أنه عندما علا صوت صبحي أفندي منصور ـ مأمور القسم: "تصرف يا جعلص !.."، ندرك مدى الانهيار الشديد أيضًا في موقف ممثل القانون ، فهو من ناحية رجل قانون يتولى مهامًا محددة بناءً على أدلة وإثباتات ، ومن ناحية ثانية يتعرض للإهانة ولا يمكنه اتخاذ موقف محدد تجاه ذلك ، أما الأخطر فهو جملته: "تكررت المصائب كثيرًا في الفترة الأخيرة ..". إذن القضية بالنسبة لمأمور القسم ليست شخصية أو مقصورة

على العلاقة بين محمد جعلص وحارة اليهود . إنها أكبر وأوسع من ذلك: في ظل الاحتلال البريطاني لمصر ، وفي العشرينيات إحدى أهم المحطات التاريخية التي تلت مشاكلهم في فرنسا وألمانيا وروسيا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، ثم وعد بلفور (البريطاني) عام ١٩١٧م بوطن قومي لليهود في فلسطين وليس في إثيوبيا أو استراليا كما كانت الوعود في السابق . القضية هنا في حاجة إلى بعض الشهادات التاريخية التي يمكنها أن تلقى الضوء تحديدًا على تلك الفترة وما قبلها ، ومن هنا يمكن إحالة القارئ إلى بعض المصادر التاريخية والسياسية ، والأدبية أيضًا لمعرفة ذلك الوضع الاستثنائي الذي حصل عليه اليهود في كل بلدان العالم بما فيها البلدان العربية التي كانت كلها تقريبًا تحت الاحتلال الأوروبي والوصاية العثمانية ، وبالتالي فلن نركز على هذا الأمر هنا.

بالعودة إلى موضوعنا الأساسي نجد أن الكاتب قد قام بتحديد خيوط السرد ليضيف أهم الأبعاد إلى شخصية البطل. فمع وجود "الخواجة" الذي يطلق صفة "مجانص" ، نجد اسم "محمد العسال" اسمًا عفويًّا بسيطًا ، تتحول كلمة

"مجانص" التي تنطوي على الضخامة والقسوة معًا إلى "جعلص" ــ اللقب الشعبي الخفيف الظل ، البعيد عن القسوة، بل والذي يشير على الراجح إلى الليونة ، لقد قام أبناء الحي الملتفون حولهما بالفصل في الموضوع ــ ليس "مجانص" أو "محمد مجانص" وليس أيضًا "محمد العسال" ، إنه ببساطة "محمد جعلص"، ليكتسب الاسم بذلك دلالة شعبية / عامة وعزيزة ، فهو مثل "بندق" و "زعلط" و "شنكل" و"بعجر" .. إلخ حيث تظهر هذه الكلمات من أربعة حروف لتذكرنا جيدًا بالأفعال الرباعية التي يحلو للمصرين اختراعها واختراع مشتقات قياسية لها فيستخدمونها أحيانًا كأفعال ، وأحيانًا كصفات وألقاب ، وأحيانا كأسماء.

مع التعيين الدقيق لاسم البطل وامتلاكه لهويته الأولية البسيطة يتضح أنه قد "شارك في مظاهرات ١٩١٩، وهاجم جنود الإنجليز في البارات ، وفي الأماكن المظلمة.."، أي أنه يحمل وعيًا ما عامًا ربما لا يحمله سكان "الجيتو" الذين يعزلون أنفسهم بأنفسهم ، ويتعالون نتيجة الإحساس بالدونية الأمر الذي يمكنه أن يدفعهم إلى التعاون مع الإنجليز وإيذاء الآخرين "الغرباء" . ثم تأتي الأبعاد الإنسانية الأخرى

(يبدو أن الكاتب يحب بطله لدرجة إظهاره بكل صفات أبطال الحكايات): "استعانت به جارة ، أخذ أعوان الفتوة كيس النقود من يدها . لم يخض المعركة إلا بعد أن بصق الفتوة على رجاله".. "اختطف جعلص الشومة بسهولة من يد الفتوة".. "فطاح بشومته في الأعوان ، تساقطوا جرحى أو فروا . تعالت الزغاريد من النوافذ والمشربيات ، ومن وراء الأبواب المواربة "، وفي النهاية يعود الكاتب ليؤكد :"اتسعت معاملاته عند الزبائن ، وزادت الثقوب ، فلم يستطع سدها .. "إنه يذكرنا عن طريق التكرار بما حدث للبطل ، رغم أن القارئ ليس في حاجة إطلاقًا إلى ذلك التكرار . فقد سبق وأن ورد ذلك بشكل فني رفيع : "أفلسوه في يوم وليلة . مهدوا لذلك سنوات بالقروض والشيكات المؤجلة والبضائع الأمانة".. "– أفلست .. أعمل الآن في حمل الخزائن .."، وسبق للكاتب أن مهد فنيًّا وسببيًّا للمعركة الآتية ، التي اتضحت أسبابها تمامًا منذ حوار البطل مع صبحي أفندي منصور . ولكن تدخل الكاتب مباشرة في مسار السرد يجعلنا نتوقف قليلاً لنتأمل ماهية هذا التدخل : هل أفسد عملية الحكي ؟ هل أثر في سلاسة السرد ، خاصة وأنه نجح إلى

حد كبير في جعل الراوي يسرد بوعي الشخصية وليس عن وعيها ، بلغتها وليس عن لغتها ؟ ربما لم يكن أمام الكاتب طريق آخر سوى التدخل المباشر ، لأن الشخصية الرئيسة "محمد جعلص (الذي لا يشرب البيرة الفرنسية ، ولا أية بيرة أخرى وإنما يقوم فقط بالإعلان عنها!) لا تحمل وعيًا سياسيًّا منظمًا ، ولا حتى وعيًا اجتماعيًّا / جماعيًّا واضحًا . وهذا ما جعل الكاتب يتدخل مباشرة لينظم وعي الشخصية (سيتضح فيما بعد أن محمد جعلص انتصر على جبريل بهذا الخصوص). إن الوضع العام في تلك الفترة كان يحتم على البطل أن يمتلك وعيًا ما ربما لا يعيه هو نفسه ، ولكنه يتصرف بعفوية الشخصية الشعبية الفردية ـــ شخصية ابن البلد في ظل الاحتلال والتخلف والفتونة والخبث.

ولكن كيف التف البطل على تدخل الكاتب ؟!

لقد قام الكاتب بتوريط أبطاله الواحد تلو الآخر . بدأ بممثل القانون : "أنا موظف رسمي .. أما أنت .."، وصرخ :"تصرف يا جعلص ، ثم بالبطل : بيني وبين حارة اليهود ثأر سأصفيه . ثم بعبد العظيم هريدي : كل الحارة ... بل

وحاول تنظيم وعي الشخصيات . ومع ذلك كانت هي واعية ــ على طريقتها بما تقوله وتفعله ، وبما ستفعله بعد قليل .

"زادت التصرفات المجرمة .. فصار من الواجب تأديب الحارة كلها .. هكذا يقول محمد جعلص نفسه . ولكنه بعد ذلك يشدد على أصحابه ألا يحملوا سوى الشوم والنبابيت، حتى لا يتورط الرجال في جرائم ". الجريمة تولد الجريمة ، والعنف لا يفصح إلا عن العنف في مجتمع يبقى القانون فيه عاجزًا حتى عن الدفاع عن نفسه . إن الأبطال ، أو البطل الرئيس يعي هذا الأمر جيدًا ، وبالتالي تظهر أعلى قمم هذه القصة لتكشف عن لب الصراع ، وعن عالمين متناقضين . بجملة واحدة عابرة على لسان البطل أفصحت القصة عن جوهريتها الأساسية ، حركت الذاكرة وزلزلت كل المقولات والتنظيرات التي تتعامل مع هذه القضية الشائكة ، كشفت ليس فقط عن ذلك ، وإنما عن الآليات التي تحرك الصراع نفسه :

ــ ينتظرون في ميدان الحسين ..

ميدان الحسين هنا ــ ليس ميدانًا ، ولا ساحة ، ولا مسجدًا إنه لا يمثل المكان بمعناه الإحداثي (الجغرافي أو

الهندسي) ، ولكنه هنا بالذات يمثل أعلى قيمة روحية بعد الصليب من حيث الترتيب الزمني . الحسين هنا ليس سيد شباب أهل الجنة أو حبيب رسول الله فقط كما يلقنون الأطفال في المدارس والكتاتيب ، ولكنه أهم دلالة روحية في مواجهة الباطل ، وهو يجسد تلك الدلالة ويحولها إلى فعل في آن واحد ، إنه الدلالة الروحيه ربما الثانية من حيث الترتيب الزمني كما قلنا بعد المسيح . إن الحسين هنا يكشف عن بشاعة التاريخ ، مثلما كشف المسيح عن بشاعة "الجيتو" قبلها بأكثر من ستة قرون . اليهود لم يمسكوا بخنجر ويقتلوا المسيح صراحة ، ولم يقم يهوذا بعملية تفكير سريعة ومحسوبة لبيع معمله (ربما يكون هذا السبب وحده كفيلاً بتبرئة يهوذا من دم (المسيح) ، ولكن عملية الخيانة تتم منذ زمن بعيد ، منذ ما قبل ميلاد المسيح بآلاف السنين ، إنها عملية جماعية منظمة ومبنية على منظومة تفكير كاملة تتلاقى فيها مصالح جميع أفراد "الجيتو" بمن فيهم ــ طبعًا ــ يهوذا المسكين الذي دخل التاريخ ليس بإرادته ، وإنما بإرادة القبيلة والعشيرة ، بجبروت وطغيان الجشع والملق والخيانة ، فصار أشهر كبش فداء بعد كبش الجد إبراهيم . إن يهوذا

بريء فعليًّا من دم المسيح ، لأن الفعلية أكبر بكثير من فرد ــ في حجم يهوذا ــ فهي فعلة جماعية منظمة يتم الترتيب بحرص لها ولمثلها ولغيرها . وهذا أبشع ما في تلك الجريمة الأخلاقية البشعة . اليهود أيضًا لم يقتلوا الحسين ، ولم يكن يزيد ليجرؤ على فعل ذلك ، ولكنها العقلية المنظمة تاريخيًّا ، تلك العقلية التي تعمل بالطلب حين تلتقي مع مصالح العصابات الموجودة في السلطة ، لن نتعرض للمؤامرات المبكرة أثناء وجود الحضارات القديمة بالذات في مصر وبلاد الرافدين ، وإنما فقط ستبدأ من نقطة هامة بالموضوع مباشرة . أثناء صراع معاوية وعلي بن أبي طالب ، أرسل الثاني محمد بن أبي بكر واليًا على مصر ، ولكن معاوية كان يعد العدة لإرسال عمرو بن العاص لضرب محمد بن أبي بكر . ولما تم النصر لجيش عمرو بمساندة بن خديج السكوتي ومسلمة بن مخلد الأنصاري ، وانكسر جيش محمد ابن أبي بكر ، وبالفعل عثر عليه في قرية "خربة" بمحافظة البحيرة حاليًا . فمن هو ابن خديج السكوتي ؟! إنه ابن اليهودية النساجة ، وأحد أفراد الجيتو الذي تعاون مع معاوية وعمرو بن العاص ، وهو نفسه الذي لعب الدور الأساسي ،

والرئيس في كسر جيش علي بقيادة محمد ابن أبي بكر . فماذا فعل ابن اليهودية ؟! لقد منع محمد من شرب الماء ، ثم ضرب عنقه بالسيف ، وبعد ذلك أدخل جسده في جوف حمار ميت وأحرقه . لقد تبادل معاوية وعمرو موقعهما مع العقلية الجيتوية ، ولعب ابن النساجة دور يهوذا وبيلاطس في آن واحد . فما أبشع سخرية القدر : لقد اتهم الجيتو اليهودي بيلاطس بقتل المسيح ، وإمعانًا في تأكيد الكذبة ضحوا بتلك الشخصية التافهة ــ يهوذا . ومن ناحيته أعلن بيلاطس وقتها أنه بريء من دم المسيح ، ولكن ماذا يمكن أن نقول عندما نرى يهوذا وبيلاطس في عباءة ابن خديج السكوتي !! إذن ، فمن يا ترى الذي ضرب جيش علي الذي كان يتكون من جند مصر بقيادة محمد بن أبي بكر ؟ ومن يا ترى قتل محمدًا بهذه الطريقة الانتقامية البشعة ؟..

إن التاريخ سلسلة متشابكة يصعب فصل إحدى حلقاتها عن الأخرى ، فها هو الحسن بن علي الذي لم يقتله أو يخونه أحد أفراد الجيتو ، ولكن هل هناك ضمانة يمكنها أن تنفي عدم تعاون يزيد مع أذيال أبيه من أجل الحفاظ على سلطة يعرف التاريخ جيدًا ما مصدرها؟ وإذا كانت هذه

الضمانة موجودة فهل يمكن نفي عدم تغلغل تلك المنظومة الفكرية الجيتوية في عملية الخلافة آنذاك ، خاصة وأن اليهود كانوا منتشرين فعليًّا في بلاط الخلفاء ؟ إننا لا نود هنا إدخال اليهود عنوة في موضوع الحسين ، وإنما نود الإشارة إلى آليات الصراع ، وإلى لبه وجوهره . فهو ليس صراعًا بين جيشين ، ولا بين الخير والشر بمفهومهما الأخلاقي ، إنه صراع بين منظومتين للتفكير ، بين مجموعة من القيم التي شكلت وما زالت تشكل طريقة حياة مجتمعات بأكملها . إن "الجيتو" في شره وطغيانه أقوى وأشد من بيلاطس ومعاوية ويزيد ويهوذا نفسه ، لقد أدرك بطل "حارة اليهود" ذلك بعفوية شديدة حين قال : "– نريد التأديب لا القتل "، إنه بذلك يراجع تفكيره السابق حينما لم يكن قد حدد بعد أسبابه ودوافعه ، عندما لم يكن اسمه وهويته قد تحددا بعد ، وهو بذلك قد استطاع أن يثبت ما لم يتمكن التاريخ من إثباته ، أو بالأحرى ما يضرب عليه التاريخ ستارًا من الكتمان والتآمر حيث لم ينعم اليهود في تاريخهم بالرفق والطمأنينة سوى بين العرب ، وهذا هو سر انتصار البطل على الكاتب ، فالأخير يكسب بطله أبعادًا إنسانية وبطولية مثل المشاركة في

مظاهرات ١٩١٩م والهجوم على جنود الإنجليز ، والدفاع عن النساء المحتاجات ، ومع ذلك نرى البطل يتصرف تبعًا لوعيه هو وليس بناءً على ما يمنحه له الكاتب من صفات . لقد وضع الكاتب الملامح الأولى لوعي البطل ، ومنذ تلك اللحظة انفصل كل منهما عن الآخر : الكاتب مثل أي كاتب يريد أن يحصن بطله بكل الدروع والصفات (خاصة إذا كان يحبه) ، والبطل الذي يتكون من لحم ودم يتحرك تبعًا لآلية فنية وفكرية أخرى تمامًا . فهو في البداية كان يريد إخراجهم من الحي كله وبلا عودة ، وعندما اكتشف الأمر ، أدرك أن إخراجهم لن يحل المشكلة ، لأن القضية ليست في الجيتو كمكان . عندما اكتملت ملامحه ، اعتصم بميدان الحسين ــ مكانًا في مواجهة حارة اليهود كمكان ، واستند إلى واحدة من أعلى القيم الروحية في تاريخ البشرية ، في مواجهة القيم الظلامية للجيتو ، تمترس بنسق روحي / تاريخي في مواجهة التمايز التي تؤدي في مجملها إلى العزلة والإحساس بالدونية ومن هنا الصدام مع الآخرين باعتبارهم غرباء في منزلة أدنى .

في نهاية القصة يقول محمد جعلص ــ العسال :

ـــ علقة .. لن يعودوا بعدها إلى أذية الناس :

فيرد عبد العظيم هريدي ـــ الذي لم يحمل مطواة ولا سكينًا

ـــ وهو يتأمل ضربه خنجر في ذراعه :

ـــ هل تظن ذلك ؟..

فحدجه محمد جعلص ـــ العسال بنظرة متسائلة .. وضغط على شفتيه بأسنانه :

... وسكت .

لقد سكت محمد جعلص في زمن أحداث القصة : في العشرينيات . و "سكت" أيضًا في زمن كتابة القصة : في التسعينيات (طبعًا لأنه كان قد مات) . إذن فربما كانت الإجابة موجودة في سؤال عبد العظيم هريدي الأخير ، أو في نظرة محمد جعلص "المتسائلة" ، وربما فيهما معًا ، ولكنها بكل تأكيد موجودة خارج القصة ، في تصميم محمد جعلص على عدم الحياة بجسد ناقص ، موجودة في أحداث كثيرة بدأت قبل أحداث القصة بزمن طويل ، وما زالت فصولها تتوالى كل دقيقة حتى وقتنا هذا .

المقاومة .. أو الطريق إلى الجنون

"ما دخل اليهود من حدودنا

وإنما تسربوا كالنمل من عيوبنا"

نزار قباني

زينب العسال

"إن القضية الأساسية التي تشغلني منذ سنوات ، هي مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي ، الحياة والموت ، والكينونة وانعدامها ، الاستمرار والانقطاع .. تلكم هي القضية التي تسبق ــ في اهتماماتي ــ ما عداها من قضايا ، لأنها قضية المصير العربي في إطلاقه" ..[١].

وهذه القضية التي تحدث عنها محمد جبريل في أحد الحوارات التي أجريت معه ، تبرز في العديد من رواياته وقصصه القصيرة . ولعل البداية في قصة "نبوءة عراف مجنون" (مجموعة انعكاسات الأيام العصيبة) .. فراوي القصة يتتبع رجلاً عرفه منذ كان طفلاً يجوب الشوارع .

فالرجل له مشية مميزة ، وأسلوب متميز في ارتداء ملابسه. حرصه الشديد على ارتداء البدلة ، حتى في عز الصيف . تعددت اللقاءات العفوية بين الرواي والرجل ، وفي كل مرة كانت أحوال الرجل تتغير "التقيت به في أماكن كثيرة . السحنة المألوفة والمشية المميزة والتصرفات التي تثير الانتباه . غابت الصورة في إطار المألوف ، فلم يعد يشدني"(٢). تزداد حالة الرجل سوءًا ، فتبدو تصرفاته غريبة. اختار السير على الأرصفة ، يرخي يديه ويرفعهما كأنه يرحب بصديق لا يراه ، ثم نشعر بتوحد الراوي مع بطل القصة "شغلني التفكير في حياته وأنا في البيت ، وأنا في المدرسة ، وأنا في الطريق . كنت أبحث عنه ــ أحيانًا ــ في شوارع وسط البلد ، فلا أستريح حتى ألتقي به". تبدلت الحالة . تتردد على لسانه كلمة واحدة : النصر ، تزامنت المرحلة التي مر بها مع التطورات والأحداث التي مرت بها مصر : قيام الثورة ، إعلان الجمهورية . وتدهورت الحالة بعد مرور ثمانية عشر عامًا . حاول الرجل جاهدًا ــ دون جدوى ــ أن يلفت نظرنا للخطر القادم ، أن ينتزعنا من اللحظة الآنية لاستشراف المستقبل ، في نهاية القصة تدلت

قدماه ، من الترام ، وتطاير الزبد من شدقيه ، وتلاحقت الصيحات والكلمات التي لم يتضح منها إلا الكلمة القديمة: النصر !. هل هذا هو واقعنا حقيقة ؟. وشمل التغيير الراوي أيضا ، فقد مات والده ، وباع أخوه الأكبر البيت ، والدلالة واضحة على واقع سياسي عاشته مصر بعد سنوات من قيام الثورة . لا يكتفي الفنان بالتلميح ، بل إنه يصرح : "وطرأ على الصورة تغير واضح" . فالتحولات السياسية التي شهدتها مصر منذ أوائل السبعينيات ، كانت تشي بالخطر القادم الذي لم نلتفت إليه أيامها (يشير تاريخ كتابة القصة إلى ١٩٧٧ ، أي أنها كتبت قبل بداية مباحثات السلام واتفاقية كامب ديفيد)، وإذا كان الناس قد أهملوا بطل "نبوءة عراف مجنون" (٣). واعتبروه فاقد العقل ، فإن محمد جبريل رفض اليأس ، وما كان إرهاصًا ، أصبح كائنًا مجسدًا . وواقعًا يعلن نفسه . يقول الفنان : "رأيي الذي ألح عليه ، أن أدب المقاومة ليس وقفًا على التحريض ضد الاستعمار الذي احتل أرضي بالحرب ، لكنه يتجاوز ذلك إلى المستعمر الذي يسعى إلى احتلال أرضي وتشويه حضارتي وقيمي وموروثاتي وملامح شخصيتي ، بواسطة أدوات قد يكون من

بينها معاهدة سلام" ..[٤]. ففي قصة العودة [٥]. تتلازم الغربة الداخلية والخارجية مع الخطر القادم المتمثل في الطائرة المتجهة إلى إسرائيل ، فاغتراب الإنسان خارج الوطن ، تسلل إلى داخل الوطن . فقد بطل القصة الأمان ، وفقد التواصل مع الآخرين . اللغة الغريبة تطارده ، وتعلن عن نفسها ، سواء في الغربة خارج الوطن ، أو داخله "كالهمس ، أو انعكاسات الأصوات في الأودية وقيعان الآبار ، تتاهت الكلمات إلى أذنيه . هز رأسه غير مصدق ، ثم عاود التأكد . كان يقينه أن ما حدث في مسقط قد انتهى بإقلاع الطائرة ، لغة ليست العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية . تتكشف لنا ماهية هذه اللغة عندما يصادف بطل القصة مجموعة السائحين الإسرائيليين . بدوا سعداء يتضاحكون ، وإن علت في أحاديثهم تلك المفردات التي عجز عن فهمها .. لكن البطل لا يجد سوى حضن أمه ملاذًا لمعاناته وتمزقه . وإذا كان انتشار الكلمات واللهجة الغريبة على الألسنة ، سببًا في عدم تواصل بطل القصة مع أهله .. فهذه اللغة بعينها تتخذ مسارًا آخر ، ورمزًا مغايرًا ، في قصة "تكوينات رمادية" [٦].. فاللغة هنا هي أحد الأسرار التي يمتلكها بطل القصة ،

ومنها يستمد قوته في مجابهة العدو الذي يتمثل في الخواجة ليفي . أحداث القصة قبل ١٩٤٨، أي قبل قيام دولة إسرائيل (سافر الخواجة ليفي ــ فيما بعد ــ إلى إسرائيل ، ضمن الأفواج الأولى لليهود المصريين) وهذه العبارة بعينها هي مفتاح قصتنا ، والسلاح الذي يملكه الأب في مواجهة المؤامرة هو الوعي المتمثل في مثابرته على مراجعة قواميس الإنجليزية والفرنسية ، وتدوين الجمل والملاحظات، فنسيان اللغة / الوعي تهديد بنسيان ما يعرفه من أسرار".[٧]، وما يعانيه الأب من هواجس ومخاوف وقلق ، رد فعل يتسم بالتجاهل وعدم التصديق ..

لقد قرروا قتلي !.. لقي الأب حتفه لأنه قاطعهم بعد أن عرف أسرارهم ونياتهم ، لكن كانت مقاطعته فردية وعاجزة ، ولم تلفت الأنظار للخطر المحدق بالجميع ، وخاصة الجيل التالي الذي يتمثل في الأبناء . إن لغتهم هنا هي أطماعهم وتوسعاتهم التي أعلن عنها العديد من قادتهم في مناسبات مختلفة ، يقول بن جوريون : "ليست المسألة مسألة احتفاظ بالوضع الراهن ، فعلينا أن نقيم دولة غير متجمدة ، دولة ديناميكية ، تتجه إلى التوسع" [٨]. ويضيف رئيس دولة

إسرائيل الأسبق : إننا نأمل بأن يؤدي السلام إلى زيادة الهجرة من الشتات ، وإلى استثمارات متزايدة في الصناعة من الداخل والخارج ، وإلى فتح أسواق كانت مغلقة أمامنا ، والرغبة في تحقيق أهداف الصهيونية السامية بإقامة دولة نموذجية تندمج في دولة المنطقة" (٩).

إن السمان في قصة "حدث استثنائي في أيام الأنفوشي" (١٠). هو المقابل الرمزي الذي استخدمه المبدع بذكاء شديد . الطيور المهاجرة التي لا تلبث أن تغزو المكان ــ بالتحديد : الأنفوشي ــ استقرت السمانة ــ أول الأمر ــ فوق الصاري المرتفع الخالي من العلم ، فالعلم رمز الوطنية والانتماء والوجود ، وباختفائه حطت أسراب السمان ، وقررت الاستقرار في حي الأنفوشي ، برع جبريل في تصوير هذا الاستقرار ، وكشف نيات الاستيطان . وفي اليوم التالي ، قدمت ــ في الطريق نفسه ــ ملايين الأسراب من السمان ، غطت الشاطئ والشوارع والأزقة وأسطح البيوت ، حتى الكبائن القليلة المغلقة في امتداد الشاطئ استطاعت ــ بواسطة ما ــ أن تنفذ بداخلها". إنه غزو مدروس ، يعرف أهدافه فلا شيء يثنيه عن تحقيقها . تحاشى أن يضايق

الناس، واتخذ حجرة في نقطة الأنفوشي ــ لاحظ الدلالة ــ يدبر منها أحواله . مع ذلك ، فقد أفاد الناس من حياته بصورة مؤكدة . النظام والهدوء في العمل والكسب والميل إلى عدم السهر ، لكن كل هذا لم يمنع القلق أن يسرب إلى النفوس . انزوت العفوية التي كانت سمة الأيام السابقة ، وطرحت الحقيقة نفسها "إن السكوت عن فعل المقاومة ــ رغم كل شيء ــ طريق إلى الجنون" (١١) وكما استقر السمان فجأة في الشوارع والأزقة وأسطح البيوت ، فقد فوجئ الناس في قصة "الطوفان" بمخلوق أسطوري ، أضخم مما رواه الجد السخاوي في حكاياته . جثم ــ هو الآخر ــ في وداعة، وخلت ملامحه من الحياة ، إلا من عينين تتحركان تحت أهداب مسترخية ، أميل إلى التهيؤ للنعاس . البناء في هذه القصة يشابه البناء في "حدث استثنائي" وإن جاء الحدث في الطوفان أكثر امتدادًا ، حيث تنتهي القصة الأولى بالتفكير في المقاومة بينما في "الطوفان" تحدث المقاومة ، وتتعدد صورها: قذف الحيوان الهائل بحجر ، إعطاؤه مخدرًا ، تصدى القوات المسلحة له وقذفه بالصواريخ .. لكن المخلوق الغريب يظل في مكانه ، ويتكفل الزمن بكسر حاجز الخوف،

فاقترب الناس منه ، ومارسوا حياتهم في مختلف صورها ، وهنا أعلن الكائن عن وجوده ، فنفض الماء حوله ، وأغرق كل شيء المقاومة هنا أخذت طابعًا إيجابيًّا أول الأمر ، فمنذ اللحظة الأولى لوجود هذا المخلوق كان اهتمام الناس ومناقشاتهم وتساؤلاتهم ، ثم تعدد محاولات القضاء عليه .. لكن الخطأ كمن في عدم استمرار المقاومة ، واستئناس هذا المخلوق الغريب .

أما قصة "المستحيل" (١٢) فإنها تطرح السؤال : هل العزلة تقي الإنسان من الخطر ؟. محمد جبريل يعيد طرح مقولته ، وإن ألبسها ثوبًا جديدًا : هل يمكن للعزلة والسلبية عمومًا ، أن تقي الإنسان الخطر . إن العزلة التي فرضها البطل على نفسه . ظنًا أنه استراح من مواجهة المجهول الذي تحدد هنا في صورة "جماعات وافدة" ــ لاحظ وضوح الرمز ــ ومشاجراتهم الدائبة مع الجيران .. هذه السلبية جاءت بعد محاولات البطل التصدي للخطر المتمثل في الجماعات الوافدة ، لكن سلبية الآخرين دفعته إلى اليأس ، فانكفأ على ذاته ظنا منه أنه حمى نفسه من هذا الخطر . أزمع أن يغلق النافذة . خفتت الأصوات في اللحظة التالية

لإغلاق النافذة ، بما أشعره أنه قد انعزل أخيرًا عن الدنيا الصاخبة حوله ولكن "إيثار السلامة بالصمت والانعزال لن يقود إلا إلى الهلاك ، فالخوف لا ينجي أحدًا ، والسلبية لا تبعد الفرد عن مصير الجماعة . إن المشاركة هي الحل ، والاندماج مع الناس هو السبيل الوحيد المتاح" (١٣).

في قصة "هل" تتبدى المقاومة في أجل صورها ومعانيها . إن المقاومة هي السبيل الوحيد الذي لابد أن نستمسك به للدفاع عن كياننا ووجودنا . ربما نفقد كل شيء حتى حياتنا ، لكن لابد من النضال ومقاومة أي اعتداء يقع على أجسادنا . المقاومة هنا لرجل ميت ، كل همه أن يدافع عن كفنه ، آخر ما تبقى له في هذه الدنيا "غاب التربي وإن بدت أنفاسه قريبة. لو أني تحركت بصورة ما ، فلن يجازف بالاقتراب . أصبعي أو عيني أو فمي ، حركة خاطفة يلمحها فلا يقوى على فعل شيء"، هل كان بطل "هل" آخر من حاول مقاومة المجهول ، حتى بعد الموت ؟.

القصة عند محمد جبريل ليست فكرة، وإنما تجربة مكثفة فهو يعتني بالعملية الجمالية في توصيل فكرته ، وفي تكون البنية القصصية .. فالعبارة عنده مكثفة موحية ،

والرمز ليس غائمًا وإنما هو رمز مشف يريد أن يخلص من الزعيق والتقريرية . إنه يعالج أخطر القضايا السياسية [١٤]. خاصة الغزو الفكري والثقافي الذي يتغلغل ويتسلل في نعومة وهدوء عبر المسارات الحياتية اليومية . لقد أصاب جبريل حينما صور لنا هذا الغزو من خلال الرمز الذي اتخذ أشكالاً عدة سواء أكانت أشباحًا ، أو أسراب السمان ، أو اللهجة والكلمات الغريبة ، أو المخلوق الأسطوري ، أو لصوص الموتى .. لكنه أمام هذا الغزو ينبه إلى وجود صور متعددة من المقاومة ، رغم أنها مقاومة سلبية أخفقت كثيرا في درء الخطر وكسره ، إلا أن ذلك يظل "تكوينات رمادية" يشف لونها ، وينصع في يوم آت ليس ببعيد ، أو هي حدث استثنائي في حياتنا . هذا ما تمناه بطل "حكايات وهوامش من حياة المبتلى" [٥]. صابر عبد السلام . واختيار الاسم له مغزى ودلالة ، فصابر ، عكس بطل "العودة" يرفض الرحيل عن أرضه ، فهو الذي شيد بيته بيده ، فلماذا يغادر وطنه وهو يتمتع بالسعادة مع ابنة عمه وزوجته سلسبيل . في هذه القصة نجد أصداء للأسطورة الشعبية "أيوب وناعسة"، المرض الذي يعانيه صابر هو ما عاناه أيوب ، وحيرة

ناعسة ، ورحلة بحثها عن العلاج الناجع لأيوب نجدها ــ بصورة أخرى ــ في القصة ، فهي تغترب وتذهب لقرى ومدن بعيدة ، باحثة عن الدواء الذي يعيد لصابر الحياة وينقذه من الموت . ومن خلال استخدام الهوامش نتعرف إلى حياة صابر قبل أن يهده المرض : رجل كريم ، يغيث الملهوف ، يشارك في الأفراح والمآتم ، يساعد الغلابة والضعفاء ، يفيض بالمحبة تجاه الآخرين ، يحرص على أداء الفروض في أوقاتها . أمنيته التي طالما حدث بها زوجه وأصدقاءه ، هي السفر إلى بلاد الحجاز من الطريق نفسها التي سافر فيها أبوه ، عندما انتوى أداء فريضة الحج" هذه الأمنية التي باح بها أمام الطبيب الذي عجز عن تحديد مرضه ، إلا أنه نصح سلسبيل بتلبية أمنيته ..

والسؤال : من الذين منع صابر من أداء فريضة الحج ؟.. إنهم الأشرار الذين تجاوزوا ترويع الآمنين ، وقطع الطرق ، ومنع القوافل ، إلى الدس بالسم والربط وغيرها من أفعال السحر والتنجيم .. في هذه القصة يحذر الفنان من تفاقم خطر وجود الأشرار أو الجماعات الوافدة ، فقد تخطى شرهم الأمور الدنيوية ، وهددوا الناس في دينهم .. ألا يذكرنا ذلك

بما حدث للمصلين في المسجد الإبراهيمي ؟.. وتنتهي القصة بكثير من علامات الاستفهام : هل ؟ كيف ؟ متى" [١٦].
ويلجأ محمد جبريل إلى استخدام الهوامش في نهاية القصة . بالإضافة والشرح والتعليق ، فالهوامش متسقة مع سياق العمل ، وتكمله للشكل الذي ارتآه المبدع .

يقول بن جوريون : "ليست المسألة مسألة احتفاظ بالوضع الراهن فعلينا أن نقيم دولة غير متجمدة ، دولة ديناميكية تتجه إلى التوسع" [١٧].

في قصة "فلما صحونا" [١٨] يحتل الضيف في أول الأمر ، مكانًا بين أسرة الأخوة ، إلا أنه لا يقنع بذلك ، فينتقل إلى الكنبة المقابلة لباب الخروج ، اختار مكانًا يتحكم منه ، إنه يبهرهم بأفاعيله كأنها السحر وألاعيب الحواة. حاولوا تقليده ، فأخفقوا . تدخل في شئونهم ، سأل وناقش ومنع صغيرهم من اللعب ، أصبح عبئًا عليهم "غابت في تصرفاته نية الرحيل ، ففرض السؤال نفسه : متى يغادر البيت ؟.. لم يترك لهم فرصة أن يظهروا ضيقهم وتبرمهم من تصرفاته .." باغتهم بريق النصل الحاد .. شل تفكيرنا ، فعجزنا عن التصرف". المقاومة في هذه القصة تبين عن نفسها في صفق

الباب بشدة . عرف الرجل الغريب كيف يتعامل مع الأخوة المجتمعين.

انفرد بهم واحدًا تلو الآخر ، استغل انشغالهم وعدم اتفاقهم على شيء . بدا الأمر سهلاً ، أو هكذا ظن .. لكن الجسد مازال حيًّا ، قادرًا على الاحتجاج والرفض..

أما في قصة "أحمس يلقي السلاح" [١٩] فإن الفنان يستشرف المستقبل ، بعد ما فترت المقاومة وحلت السلبية ، فكانت المرحلة التالية هي التعاون مع الكيان الصهيوني ، ونتيجة هذا التعاون كما تصوره القصة هي انضمام الراوي إلى طابور الموتى الذين قابلهم في طريق عودته من توديع أخيه المهاجر ، مثلما فعل باقي أخوته . الضابط ، قائد السيارة ، حارس المبنى ووالده . لقد رفض سماع تحذيرات الأم من التعامل مع هؤلاء الناس الذين تعامل معهم والده "عاد في يومه الأخير مهمومًا ، فأثار قلقها . قدم في رحلته الأخيرة من العريش . سألت عن ضخامة الهدايا ، فحدثها عن صفقة العمر . احتواه الصمت بعدها ، ولزم السرير ، فلم يغادره . ها هو البطل يتجه إليهم ، يقدم خدماته كما فعل أبوه "دلوني على الطريق التي سار فيها ، فلا أخطئ

معالمها". إن الصرخة التي أطلقها البطل عندما رأى وجهه. تعلن عن مدى الخطر الذي يحدق بنا جميعًا.

في قصة "حارة اليهود" (١٠). يصور لنا الكاتب مرحلة من مراحل الصراع العربي الإسرائيلي ترجع بنا إلى زمن العشرينيات من هذا القرن . أما المكان فهو حارة اليهود ــ عنوان القصة ــ ينتقم محمد جعلص من اليهود ساكني الحارة ، بعد أن تعرضوا لابنه الأكبر علي . الصراع له جذوره في هذه الواقعة ، فهم سبب إفلاس تجارته ..

قال محمد جعلص : بيني وبين سكان حارة اليهود ثأر ، سأصفيه..

قال هريدي : كل الحارة ..

وهو يضرب الهواء بجانب يده : زادت التصرفات المجرمة ، فصار من الواجب تأديب الحارة كلها ..

قال هريدي : بمفردك يا جعلص ؟

قال جعلص : طبعا لا .. استقدمت مجموعة من بلدياتي في الصعيد فطنتهم على المسألة وما يجب عمله .

البطل هنا شخصية إيجابية ، لا تعرف الخنوع أو السلبية ، محبوب من أهله ، يتمتع بالقوة البدنية ، لديه وعي سياسي .. فقد شارك في مظاهرات ثورة ١٩١٩، وهو على دراية كبيرة بطبيعة عدوه ، فقد حشد له الأعوان من بلدياته "سد الرجال كل المنافذ المفضية إلى حارة اليهود ، في الحسين وبيت القاضي والموسكي تأكدوا من الأبواب الخلفية للبيوت والدكاكين والمخازن ، فلا يفلت أحد" هل كان الاطمئنان إلى قوة الرجل ورجاله دافعًا لمواجهة سكان الحارة ؟. القوة وحدها لم تكن كافية لمواجهة سكان الحارة ، فثمة الإيمان العميق ، فهو ورجاله يجتمعون في ساحة الحسين ، وعندما تنتهي المعركة يتجه إلى ميدان الحسين ، حيث الابتهالات والدعوات والتسابيح والأذان ..

يعمد محمد جبريل في نهاية قصته إلى حاشية ، هل مكمل للقصة ، بل قد لا أكون مبالغة إن قلت أنها تحمل ما أراد جبريل قوله .. فبطل القصة شخصية حقيقية ، مات في أواخر العشرينيات . دخل في قدمه مسمار وهو يسير حافيًا ، داخل بيته ، أشار الطبيب الشهير علي باشا إبراهيم بضرورة بتر الساق ، حتى لا تلتهم الغرغرينا الجسد كله . رفض

محمد جعلص أن يحيا بجسد ناقص ، رفض أن يتخلى عن جزء من جسده في سبيل أن يحيا باقي الجسد . رفض التضحية بجزء من جسده ، فلا معنى للحياة لو تنازل الوطن عن جزء منه .. فهل ألقى أحمس السلاح حقًّا ..؟!

وفي رواية "من أوراق أبي الطيب المتنبي" (١٢) يستلهم الفنان شكل التحقيق ، ويقدم شخصية تراثية طالما أثير حولها جدل كثير : المتنبي الشاعر الطموح ، ذا التوجهات السياسية التي لا يمكن إغفالها . من هنا نجد جبريل يقتنص الفرصة ليقدم سيرة ذاتية لحياة الشاعر ــ من وجهة نظر الفنان ــ وقت إقامته في مصر المحروسة . وإذا كانت الرواية تسجل وقائع في زمن كافور الإخشيدي ، إلا أن هناك وشائج وعلاقات ممتدة بين زمن الرواية المفترض، وبين الزمن الحالي ، الواقع المعاصر ، فهناك أحداث بعينها يؤكد الروائي في هوامشه أن الثابت تاريخيًّا ، أن هذه الأحداث لم تقع في زمن الإخشيدي . ولعل أهم هذه الوقائع ، حديثه عن الجماعات الوافدة ، فهي "تشن هجمات على حدود مصر ، وتسبي النساء والأطفال ، وتروع الآمنين ، وتدمر المحاصيل ، وترتكب جرائم السلب والنهب والإيذاء ، وتوسع

من دوائر نفوذها". تذكرنا الجماعات الوافدة هنا بالسمان في قصة "حدث استثنائي في أيام الأنفوشي" .. هذه الجماعات أصبحت تهدد رموز السلطة والحكم : الإخشيدي ورجاله . دخلت أحاديث الحرب ــ للمرة الأولى ــ مجلس الأستاذ ، وجاءت الأخبار بأن الجماعات تحركت ووصلت إلى ما بعد العريش ، تقطع على المسافرين الطريق ، تأخذ أموال الناس، وتشن الغارات المفاجئة على مناطق الحدود (ثمة إسقاط على نكسة يونيو ١٩٦٧) ثم تسجل فرحة الناس ، حين ينتصر جيش مصر على الجماعات الوافدة ــ رغم كثرة الأحداث والمواقف التي يصادفها المتنبي ــ يتطابق تمامًا مع ما حدث في زماننا الحالي ، إرهاصات السلام المزعوم تبدأ بالهمس ، ويبادر حسن السيابي ــ أحد أعوان كافور ــ بالحديث عنه ، ولأن كل شيء قابل للتفاوض كما قال حسن السيابي ، فإنه يسافر إلى مناطق الحدود ، وإلى بلاد بعيدة وقريبة لإجراء مباحثات مع الجماعات الوافدة .

لكن : أين الشعب من هذه الأحداث ؟. لا نترك الرواية إلا ونحن أمام ثورة المصريين العارمة ، التي دفعت المخصي إلى مراجعة نصائح معاونيه في السلام مع

الجماعات الوافدة ، يقلب ويعيد ترتيب الأمور ، يناقش مع أصوات معارضة ، بدايات المشكلة ، يتلمس جذورها ، يتشوف توقعات المستقبل ، فمن يضمن ألا تنقض الجماعات الوافدة ما وعدت به ، فتعاود إغاراتها ، تروع الآمنين ، وتسلب الأرض والدور والأموال .. لا يمكن الاستسلام للوعود البراقة ، والشعارات الرنانة التي طمست معها الحقيقة ، فبدت شاحبة .. لكن الشعب لا ينخدع بكل ما يدور حوله . قد يبدو الأمر لا يعنيه في قليل أو كثير ، إلا أن ثورة الشعب أكدت الرفض القاطع للمحاولات التي فرضت عليه السلام . والشعب هنا يتمثل في العديد من الشخصيات ، وأهمها عبد الرحمن السكندري .

إن رواية "من أوراق أبي الطيب المتنبي" قد شغلتنا بمصر أكثر مما شغلتنا بالمتنبي نفسه ، لأنها حملت عذابات مصر وأحزانها في الماضي والحاضر على السواء ، بل جاوزت ذلك لتحاول التنبؤ بالمستقبل ..

وفي رواية "النظر إلى أسفل" (١٩٩٢) تختلط الأوراق بين العام والخاص .. فحياة بطلها شاكر المغربي ما هي إلا رد فعل لما يدور حوله من أحداث . البطل المأزوم

نفسيًّا يمثل بانوراما صادقة للبعد السياسي والاجتماعي لتلك الفترة الحافلة بالأحداث ، إننا نلهث وراء تتابع الأحداث والرواية تبدو قطعة حية من تاريخنا الحديث . "ثمة إشارات إلى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، وطرد الملك فاروق ، وتنصيب محمد نجيب رئيسًا ، وارتفاع نجم عبد الناصر ، وخلافه الشهير مع نجيب ، وقيام المظاهرات المنادية بعودة نجيب ، فالعدوان الثلاثي ، ثم وحدة مصر وسوريا ، فالانقلاب السوري وإنهاء "الوحدة" ثم حرب اليمن ، ونكسة يونيو ، وتنحي جمال عبد الناصر ، وحرب الاستنزاف ، فموت عبد الناصر ، فتولي السادات الحكم ، وحرب أكتوبر ، والانفتاح الاقتصادي ، وزيارة السادات للقدس ، فاعتقالات سبتمبر ، ثم اغتيال السادات" (٢٢).

وإذا كانت الرواية تحرص كل الحرص على تسجيل أحداث التاريخ السياسي لمصر خلال الأعوام منذ ثورة يوليو إلى مصرع السادات ، فإنها لا تغفل حركة المجتمع ووعيه بتلك الأحداث السياسية من خلال عدد من الشخصيات ، تتباين اتجاهاتهم وأهواؤهم السياسية ، فالنقراشي شخصية لا منتمية ، وعماد عبد الحميد ، الناصري ، له ميول وطنية ،

وخليل عبد الباقي يمثل التيار الديني في اعتداله ، وتطرفه أيضًا ، وبخيت البشري ، وفدي قديم ، ومنصور السخيلي واحد من الضباط الذين أحيلوا للاستيداع عقب نكسة ١٩٦٧، وشاكر المغربي بطل الرواية الذي يتعرف على سر لعبة التجارة وخفاياها ، وفي مدة وجيزة ، أمسك بطلنا بمفاتيح اللعبة ، وبدأ صعوده إلى أعلى في طريق الثراء ، مستغلاً كل ثغرات النظام السياسي" (٢٣) وبرغم وطأة الأحداث وكثرتها ، وتعدد مواقف مجموعة أبطال الرواية تجاهها ، فإن الرواية لا تغفل إسرائيل كقضية تؤرق جيلاً كاملاً كان عليه أن يتعامل مع واقع فرضته قوى عظمى . وطالما حاول جاهدًا الانفلات من قبضتها . فكان مصيره الوقوع في براثن الهزيمة التي اعتصرت القلوب ، شلت العقول لفترة ، تأتي على لسان عبد الباقي خليل هذه العبارة التي تكشف عن مدى القلق من نكسة يونيو "كسبت إسرائيل بالوصول إلى ضفة القناة أمانًا أبديًّا . المستحيل الآن هو التفكير في العبور إلى حيث كنا".

وها هو بطل الرواية يسارع إلى تبادل السلع مع إسرائيل ، ويأتي التساؤل على لسان عبد الباقي : هل سدت

كل الأبواب فلا يوجد إلا باب إسرائيل ؟.. فصادرات إسرائيل تغمر الأسواق، ورحلات العال منتظمة بين القاهرة وتل أبيب ، والسفن الإسرائيلية تعبر قناة السويس ، وكان حال بطل الرواية شاكر المغربي بما يمارسه من أنشطة اقتصادية وتعاون مع الإسرائيليين ، ما هو إلا النظر إلى أسفل ، حيث لا يرى المرء غير موقع قدميه . وتغيب الأبعاد والمسافات ، وتصطدم الأقدام بأرض الواقع المرير الذي طالما نبه وحذر منه ، رامزًا تارة ، وهامسًا تارة أخرى ، ومصرحًا أحيانًا.

إننا أمام أديب يرفض الاستسلام ، ولو كان في صورة سلام ، بل لأنه في صورة سلام . وكما قال الفنان في أحد حواراته الصحفية : إن السلام الزائف أخطر من الحرب.

مجلة "القاهرة" ــ مارس ١٩٩٤

الهوامش

١- من حوار مع جبريل ـــ محمد يوسف ـــ مرآة الأمة ١٩٨٦.

٢- مجموعة "انعكاسات الأيام العصيبة" ـــ مكتبة مصر ١٩٨١.

٣- المصدر السابق .

٤- من حوار مع الفنان ـــ علي عبد الفتاح ـــ الرأي العام ١٩٨٧.

٥- مجموعة "هل" ـــ مختارات فصول ـــ يوليو ١٩٨٧.

٦- المصدر السابق .

٧- مصطفى بيومي : قراءة في مجموعة "هل" ـــ مجلة إبداع .

٨- ورجيه جارودي : ملف إسرائيل ـــ دراسة للصهيونية السياسية ـــ دار الشرق .

٩- سمير جبور : مخططات إسرائيل الاقتصادية في ضوء معاهدة الصلح المنفرد ــ مؤسسة الدراسات الفلسطينية .

١٠- مجموعة "هل" .

١١- المصدر السابق .

١٢- مصطفى بيومي : المصدر السابق .

١٣- مجموعة "هل" .

١٤- عبد العال الحمامصي : من ندوة لمجلة "الصناعة والاقتصاد" .

١٥- حكايات وهوامش من حياة المبتلى ــ مجلة إبداع .

١٦- د. جمال التلاوي : هوامش محمد جبريل ــ مجلة الإذاعة والتليفزيون .

١٧- روجيه جارودي : مصدر سابق .

١٨- "فلما صحونا ــ مجلة إبداع" .

١٩- "أحمس يلقي السلاح" ـــ "جريدة الشرق الأوسط" .

٢٠- "حارة اليهود" ـــ العربي الكويتية مايو ١٩٩٥.

٢١- من أوراق أبي الطيب المتنبي (١٩٨٨) الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٢٢- د. ماهر شفيق فريد : محمد جبريل ، فسيفساء نقدية ـــ مجلة القصة ٧٤ .

٢٣- د. نبيلة إبراهيم : أبحاث مؤتمر الإبداع الروائي في إقليم غرب ووسط الدلتا ـــ يناير ١٩٩٤ .

للمؤلف

١- تلك اللحظة (مجموعة قصصية) ١٩٧٠ ــ نقد .

٢- الأسوار (رواية) ١٩٧٢ هيئة الكتاب ــ الطبعة الثانية ١٩٩٩ ــ مكتبة مصر .

٣- مصر في قصص كتابها المعاصرين (دراسة) الكتاب الحائز على جائزة الدولة ــ ١٩٧٣ هيئة الكتاب .

٤- انعكاسات الأيام العصيبة (مجموعة قصصية) ١٩٨١ مكتبة مصر ــ ترجمت بعض قصصها إلى الفرنسية .

٥- إمام آخر الزمان (رواية) الطبعة الأولى ١٩٨٤ مكتبة مصر ــ الطبعة الثانية ١٩٩٩ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية .

٦- مصر .. من يريدها بسوء (مقالات) ١٩٨٦ دار الحرية .

٧- هل (مجموعة قصصية) ١٩٨٧ هيئة الكتاب ــ ترجمت بعض قصصها إلى الإنجليزية والماليزية .

٨- من أوراق أبي الطيب المتنبي (رواية) الطبعة الأولى ١٩٨٨ هيئة الكتاب ــ الطبعة الثانية ١٩٩٥ مكتبة مصر .

٩- قاضي البهار ينزل البحر (رواية) ١٩٨٩ هيئة الكتاب .

١٠- الصهبة (رواية) ١٩٩٠ هيئة الكتاب .

١١- قلعة الجبل (رواية) ١٩٩١ روايات الهلال .

١٢- لنظر إلى أسفل (رواية) ١٩٩٢ هيئة الكتاب .

١٣- الخليج (رواية) ١٩٩٣ هيئة الكتاب .

١٤- نجيب محفوظ .. صداقة جيلين (دراسة) ١٩٩٣ هيئة قصور الثقافة .

١٥- اعترافات سيد القرية (رواية) ١٩٩٤ روايات الهلال .

١٦- السحار .. رحلة إلى السيرة النبوية (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر .

١٧- آباء الستينيات .. جيل لجنة النشر للجامعيين (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر .

١٨- قراءة في شخصيات مصرية (مقالات) ١٩٩٥ هيئة قصور الثقافة .

١٩- زهرة الصباح (رواية) ١٩٩٥ هيئة الكتاب .

٢٠- الشاطئ الآخر (رواية) مكتبة مصر ـ ترجمت إلى الإنجليزية .

٢١- حكايات وهوامش من حياة المبتلى (مجموعة قصصية) ١٩٩٦ هيئة قصور الثقافة .

٢٢- سوق العيد (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب .

٢٣- انفراجة الباب (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب ـــ ترجمت بعض قصصها إلى الماليزية .

٢٤- أبو العباس ـــ رباعية بحري (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر .

٢٥- ياقوت العرش ـــ رباعية بحري (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر .

٢٦- البوصيري ـــ رباعية بحري (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر .

٢٧- علي تمراز ـــ رباعية بحري (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر .

٢٨- مصر المكان (دراسة في القصة والرواية) ١٩٩٨ هيئة قصور الثقافة .

٢٩- حكايات عن جزيرة فاروس (سيرة ذاتية) ١٩٩٨ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية .

٣٠- الحياة ثانية (روايات تسجيلية) ١٩٩٩ ـــ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية .

٣١- بوح الأسرار (رواية) ١٩٩٩ روايات الهلال .